حكاياتي

للآبَاءِ وَالأبْنَاء

الشَّيخُ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ مُهَلْهِل اليَاسِين

حكاياتي للآباء والأبناء

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة

هذا الكتاب

* حكايات معبرة، قصص مؤثرة، حكم عظيمة، فوائد عميمة:
(للآباء) كيف يربون؟ كيف يعلمون؟ ماذا يفعلون؟ وعن ماذا يبتعدون؟
(وللأبناء) كيف يعاملون آباءهم؟ كيف يكون البر بهم والتعامل معهم؟
كيف يقدرونهم قدرهم، ويعرفون لهم مكانتهم؟

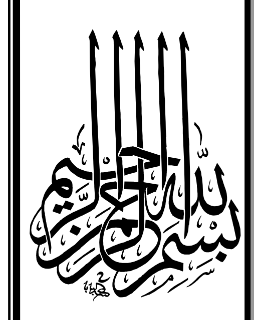
* هذا الكتاب الذي بين أيدينا عشرون حكاية، ليست من نسيج الخيال، ولا نقلاً لما لا يصح من المقال، بل هي حكايات حقيقية وقصص واقعية، استللت منها الفوائد والعبر؛ لتكون لقمة سائغة لكل أب يبتغي الخير له ولأبنائه ولأمته ولدينه، ولكل ابن غاب عنه كيف يبر أباه، وتاه بين الأصحاب ونسي الأب الذي رباه.

ولا نبتغي بعملنا هذا إلا مرضاة الله، والخير لكل أفراد أمتنا، لا نبتغي لهم إلا الرفعة والعزة والعلو.. والله الموفق لكل خير.

المؤلف



مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت : ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦ ص.ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com



الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٢م

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : حكاياتي للآباء والأبناء
عنوان السلسلة : بيت الدعوة
اسم المؤلــف : د.جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشــــر : شركة السماحة للنشر والتوزيع الكويت
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحات : ٢٢٢
مقاس الكتاب : ١٤×٢٠
عـدد المـلازم : ١٤
رقـم الإيداع : ٢١٧٥٣ / ٢٠١١

شركة السماحة - الكويت
ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

حكاياتي
للآبـاء والأبنـاء

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب منشوراتنا

في الكويت من : شركة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١ - الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من : مؤسسة شروق للترجمة والنشر

المنصورة - شارع جيهان - أمام مستشفى الطوارئ

ت: ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (٥٧) — الرقم الف (٢٧)

حكاياتي للآباء والأبناء

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهِل الياسين

الإهْدَاءُ نثراً

إلَى **وَالِدَتِي** **مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ الله –

سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إلَى وَالِدَتِي أهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلّي أُؤَدّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إلَى كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إذْ أَكْتُبُ هَذَا الإهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الإهْداءُ شعْراً

أَمَّـاهُ كُنْـتِ مُنِيـرَةً وَمَنَـارَةً ... عُلْيَـا وَصَـرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا ... لِصَـنَائِعِ المَعْـرُوفِ وَالإِحْسَـانِ
قَـدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَـامِ أُمّـاً بَـرَّةً ... وَالجَـارِ وَالمِسْـكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقَ شَهْدَاً سَلْسَلاً ... تَـدْنُو ثِمَـارُ قُطُوفِهَـا لِلْجَـانِي
عَلَّمْتِنَـا الصَّـبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً ... وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أَبَتَـاهُ قَـدْ رَبَّيْتَنِـي وَأَحَـطْتَنِي ... برِعَايَـةٍ فِـي غِبْطَـةٍ وَأَمَـانِ
وَفَّـرْتَ أَسْبَابَ السَّعَـادَةِ وَالهَنَـا ... فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَأُسْـكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا ... بالفَضْلِ لاَ فَظٍّ وَلاَ مَنَّانِ
كَـمْ ذَا تُقَابِلُ بِالسُّرورِ تَـدَلُّلِي ... بِمَحَبَّةٍ وَبِرَأْفَةٍ وَحَنَانِ
أَحْبَبْتَنِي قَرَّبْتَنِي رَبَّيْتَنِي ... بالعِزِّ فِي ثِقَةٍ وَفِي اطْمِئْنَانِ

* * *

أَرَفيقَتِي كُنْتِ الشُّعَاعَ إِذا دَجَا ... لَيْلُ الحَيَاةِ بِمُظْلِمِ الحِدْثَانِ
قَدْ كُنْتِ خَيْرَ شَرِيكَةٍ وَمُعِينَةٍ ... فِي البِرِّ عِنْدَ تَقَاعُسِ الأَعْوَانِ
الصَّبْرُ فِيكِ مَعَ الوَفَاءِ سَجِيَّةٌ ... بتَعَاقُبِ الأَفْرَاحِ وَالأَحْزَانِ

* * *

يَا حَبَّذَا **أَفْلاذُ أَكْبَادٍ** بِهَا ... كَمُلَ المُرَادُ وَقَرَّتِ العَيْنَانِ
فَاحْفَظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ**
لاَ زَالَ **عَبْدُ اللهِ** فِي حِفْظٍ وَلاَ ... زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ
وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ** بِمَا ... قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ
وَاحْفَظْ هَيَا **وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا ... مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ
صَلَّى الإِلهُ عَلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وصفوة الله من الخلق أجمعين، سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

وبعد:

فهذه مجموعة من الحكايات الهادفة والقصص الناجحة، جمعتها من سجل أمتنا الإسلامية، واستقيتها من أصولها العظيمة، وأحداث تاريخها الكريمة، وعكفت أستل من كل حكاية بعض خيوطها القوية المتينة، ثم وجهتها تجاه كل الآباء والأبناء لتُكَوِّن لهم حبلاً قوياً يصلهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، ويجعلهم ينون حياة ملؤها الأمان والاطمئنان، وتعلوها الفرحة والبهجة على مدى الأزمان، وهي عشرون قصة وحكاية، لكل حكاية منها أهداف حكيمة، وفي كل قصة منها وصايا عظيمة في تعامل الآباء والأبناء.

ولقد بدأت بالحكاية قبل النصيحة والموعظة؛ لأبين أني لست أتكلم في عالم المثاليات، ولست فقط ممن يتكلمون في النظريات، بل كل ما سأقوله إنما له شاهد من التطبيقات، ومؤكد من الواقعيات، لتكون أرسخ في النفوس وأثبت بالعقول، وأقرب إلى

التطبيق والتنفيذ.

وإني لأرجو الله أن أكون قد وفقت في جمعي هذا، فما كان من صواب فمن فضل الله- سبحانه وتعالى، وما كان من قصور فمن نفسي ومن الشيطان، وأرجو من الله العفو والغفران.

والحمد لله رب العالمين.

والحكايات هي:

١ـ ابن عمر يعظ عمر
٢ـ الطباع سراقة
٣ـ أولادنا والصلاة
٤ـ بالعدل تحيا الأسر كما به تحيا الأمم
٥ـ تأديب عملي
٦ـ حلاوة الآباء
٧ـ قبلوهم قبلة الحب
٨ ـ كونوا قوامين بالقسط
٩ـ لا بد يوماً أن ترد الودائع
١٠ـ وصية عند السفر
١١ـ أسماؤهم أمانة في أعناقكم
١٢ـ بر لتبر ولا تعق فتعق
١٣ـ بُعد الآباء وفراق الأبناء
١٤ـ عروة الدين هي العروة الوثقى
١٥ـ كيف يعيش الأب عندما يفارق أبناءه
١٦ـ لأجلكم ادعوا لهم لا عليهم
١٧ـ وجههم لما يرغبون
١٨ـ تأدب مع أبيك
١٩ـ أكرم ودَ أبيك
٢٠ـ علمهم الورع

[١]

ابْنُ عُمَرَ يَعِظُ عُمَرَ

ابْنُ عُمَرَ يَعِظُ عُمَرَ

لَـمَّا تَوَلَّى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ الخلافَةَ بَعْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْـدِ المَلِـكِ وَأَنْهَى خُطْبَتَهُ بِالنَّاسِ دَخَلَ بَيْتَ الـخِلافَةِ وَأَمَـرَ بِالسُّـتْرِ فَهُتِكَـتْ، وَالثِّيَابِ الَّتِي كَانَتْ تُبْسَطُ لِلْخُلَفَاءِ فَحُمِلَتْ، وَأَمَرَ بِبَيْعِهَـا وَإِدْخَـالِ أَثْمَانِهَا فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَتَبَوَّأُ مقِـيلاً، فَأَتَـاهُ ابْنُـهُ عَبْـدُ الملِكِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ أَقِيلُ.

قَالَ: تُقِيلُ وَلا تَرُدُّ المظَالِمَ؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ سَـهِرْتُ البَارِحَـةَ فِي أَمْرِ عَمِّكَ سُلَيْمَانَ فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ رَدَدْتُ المظَالِمَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَكَ أَنْ تَعِيشَ إِلَى الظُّهْرِ؟ قَالَ: قَالَ ادْنُ مِنِّي أَيْ بُنَـيَّ، فَدَنَا مِنْهُ فَالْتَزَمَهُ وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: الحَمْدُ لله الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِي مَنْ يُعِينُنِي عَـلَى دِينِـي، فَخَـرَجَ وَلَمْ يُقِـلْ وَأَمَـرَ مُنَادِيـه أَنْ يُنَادِي: أَلا مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ فَلْيَرْفَعْها[١].

نَصِيحَةُ الابْنِ لأَبِيه بِرٌّ بِه:

عِنْدَمَا تَتَلاقَـى الأَرْوَاحُ عَـلَى المَحَبَّـةِ، وَتَتَـآلَفُ النُّفُـوسُ عَـلَى المودَّةِ، وَتَجْتَمِعُ الأَجْسَادُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَتَتَعَاضَدُ الأَعْضَاءُ وَالقُوَى

(١) تاريخ دمشق ٤٥/ ٣٥٨، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥.

عَلَى الخَيْرِ فَإِنَّ هُنَاكَ انْفِجَاراً هَائِلاً مِنْ الخَيْرِ والصَّـلاحِ سَيَحْصُـلُ فِي ذَلِكَ المَكَانِ.

كَثِيراً مَا نَرَى وَنَسْمَعُ أَنَّ آبَاءً يَأْمُرُونَ أَبْنَاءَهُمْ بِالخَيْرِ وَيَنْهَـوْنَهُمْ عَنْ الشَّرِّ، كَثِيراً جِداً مَا نَرَى آبَاءً يَنْصَحُونَ أَبْنَـاءَهُمْ وَيُرْشِـدُونَهُمْ إِلَى ما فِيهِ خَيْرُهُمْ وَصَلاحُهُمْ، لَكِنْ الآنَ بَيْنَ أَيْدِينَا صُورَةٌ أُخْـرَى يَتَغَيَّرُ فِيهَا مَوْقِفُ الأَبِ والابْنِ فَيَكُونُ الابْنُ هُوَ الَّذِي يَنْصَحُ أَبَاهُ وَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ، وَنَرَى فِيهَا مُنَاشَدَةً قَوِيَّةً، وَنَصِيحَةً مُؤَثِّرَةً، وَلَكِنَّهَا مُهَذَّبَةٌ وَمُؤَدَّبَةٌ وَرَائِعَةٌ وَهَذَا لا يُخْرِجُ المَوْقِفَ أَبَـداً عَـنْ بِـرِّ الابْـنِ بِأَبِيهِ فَبِرُّ الوَلَدِ بِأَبِيهِ لا يَقْتَصِـرُ عَـلَى طَاعَتِـهِ وَاحْتِرَامِـهِ وَتَقْـدِيرِهِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ مِنْ وَاجِبِ الابْنِ عِنْدَمَا يَرَى أَبَاهُ نَاسِياً لِطَاعَـةٍ أَنْ يُذَكِّرَهُ بِهَا، أو غَافِلاً عَنْ عِبَادَةٍ أَنْ يُنَبِّهَهُ إِلَيْهَا، أو مُرْتَكِباً لِمَعْصِيَّةٍ أو ذَنْبٍ أَنْ يَنْصَحَهُ بِالابْتِعَادِ عَنْهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَصْحُوباً بِكُـلِّ رِقَّـةٍ وأَدَبٍ واحْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ.

وَعَلَى الابْنِ حِينَ يَعِظُ أَبَاهُ أَنْ يَكُونَ وَعْظُهُ بِالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ والمجَادَلَةِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَأَنْ يَتَذَكَّرَ قَوْلَ الله ـ تعالى ـ فِي سُورةِ الإِسْرَاءِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

﴿لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1]. ولا يَغْفُلُ أَبداً عَنْ قَوْلِهِ- تَعالَى- فِي سُورَةِ لُقْمَانَ عَنِ الوَالِدَيْنِ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

قُدْوَةٌ وَأُسْوَةٌ لِكُلِّ الأَبْنَاءِ:

إِنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ يَضْرِبُ مَثَلاً رَائِعاً لِكُلِّ الشَّبَابِ المسْلِمِ فِي إِعَانَةِ الوَلَدِ لأَبِيهِ عَلَى أَدَاءِ الأَمَانَةِ وَالقِيَامِ بِهَا حَقَّ القِيَامِ، مَا أَرْوَعَ المَوْقِفَ وَمَا أَجَلَّهُ!!

ابْنٌ يَعِظُ أَبَاهُ!! ابْنٌ يُذَكِّرُ أَبَاهُ!! وَمَنْ هُوَ هَذَا الابْنُ ؟ وَمَنْ ذَاكَ الوَالِدُ؟ إِنَّ الوَالِدَ هُوَ خَلِيفَةُ المُسْلِمِينَ وَأَمِيرُ المؤْمِنِينَ، والابْنَ هُوَ ابْنُ أَكْبَرِ مَسْؤُولٍ فِي أَعْظَمِ دَوْلَةٍ آنَذَاكَ لَمْ يَتْرَفْ الابْنُ تَرَفَ الأَغْنِيَاءِ، وَلَمْ يَفْعَلْ كَمَا يَفْعَلُ الأَشْقِيَاءُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَسْتَغِلّ مَنْصِبَ أَبِيهِ لِيَعِيَش فِي شَغَفٍ، وَيَغْرَقَ فِي تَرَفٍ، وَيَحْيَا دُونَ إِحْسَاسٍ أو مَسْؤُولِيَّةٍ، بَلْ كَانَ نِعْمَ المُعِينُ لأَبِيهِ وَنِعْمَ النَّاصِحُ لَهُ. حَتَّى قِيلَ:

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.
(٢) لقمان: ١٥.

إِنَّ سَبَبَ مَا كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ فِيهِ مِنْ العِبَادَةِ والتُّقَى والوَرَعِ هُوَ ابْنُهُ عَبْدُ المَلِكِ. فَعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْلَى المحَارِبِيِّ عَنْ بَعْضِ مَشْيَخَةِ أَهْلِ الشَّامِ قَالَ: كُنَّا نَرَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ إِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِي العِبَادَةِ مَا رَأَى مِنْ ابْنِهِ عَبْدِ المَلِكِ .

مَهْمَا فَعَلَ الأَبُ لا تَنْسَ أُبُوَّتَهُ :

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

إِنَّ بِرَّ وَالِدَيْكُمْ أَمْرٌ أَوْجَبَهُ اللهُ عَلَيْكُمْ وَإِنَّ أَحَداً لَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَجْزِيَ أَبَاهُ حَقَّهُ وَيُوَفِّيَهُ بِرَّهُ إِلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيُعْتِقَهُ قَالَ: «**لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِداً إِلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيهِ فَيُعْتِقَهُ**»[1]. وَأَيُّ رِقٍّ أَعْظَمُ مِنْ رِقِّ الإِنْسَانِ لِشَهَوَاتِهِ، أَيُّ عُبُودِيَّةٍ أَكْبَرُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الإِنْسَانِ لِمَعَاصِيهِ، وَمَا أَرْوَعَهُ مِنْ عِتْقٍ عِنْدَمَا يَكُونُ الابْنُ سَبَباً فِي عِتْقِ رَقَبَةِ وَالِدِهِ مِنَ النَّارِ.

وَلَقَدْ أَعْطَى اللهُ- عَزَّ وَجَلَّ- لِكُلِّ الأَبْنَاءِ دَرْساً فِي كِتَابِهِ وَهُوَ مَوْقِفُ إِبْرَاهِيمَ- عَلَيْهِ السَّلامُ- مِنْ أَبِيهِ فَإِنَّهُ لَـمَّا رَأَى أَبَاهُ عَلَى الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ تَحَرَّكَتْ فِيهِ مَشَاعِرُ البُنُوَّةِ، وَتَأَجَّجَتْ فِيهِ أَحَاسِيسُ الرَّحْمَةِ والشَّفَقَةِ عَلَيْهِ، فَأَتَاهُ نَاصِحاً وَوَاعِظاً، وَجَاءَهُ

(١) أخرجه مسلم (١٥١٠)، وأبو داود (٥١٣٧)، والترمذي (١٩٠٦) .

مُرْشِدا وَمُشْفِقاً، لَكِنَّهُ اسْتَهَلَّ مَوْعِظَتَهُ بِمَا يُوحِي لِوَالِدِهِ أَنَّهُ ابْنُهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْسَ أَنَّهُ ابْنٌ وَأَنَّ مَنْ يَعِظُهُ هُوَ أَبُوهُ، فَكَانَ أَوَّلُ كُلِّ مَوْعِظَةٍ يَقُولُ وَيُكَرِّرُ: يَا أَبَتِ، يَا أَبَتِ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾[1].

وَبَعْدَ أَنَّ نَصَحَهُ وَكَانَ مِنْ أَبِيهِ مَا كَانَ مِنْ تَهْدِيدٍ وَتَنْدِيدٍ، وَإِنْذَارٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ إِبْرَاهِيمَ- عَلَيْهِ السَّلامُ- إِلا أَنْ قَالَ لأَبِيهِ: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾[2].

حُجَّةُ مَنْ يَرْضَوْنَ بِعِصْيَانِ آبَائِهِمْ:

إِنَّ بَعْضَ الأَبْنَاءِ يُتَابِعُونَ آبَاءَهُمْ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَفِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، وَعِنْدَمَا يُسْأَلُونَ يُجِيبُونَ وَيَظُنُّونَ أَنْفُسَهُمْ جَهِيزَةَ الَّتِي قَطَعَتْ قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ. فَيَقُولُ أَمَامَهُ إِنَّهُ أَبِي وَبِرُّهُ وَاجِبٌ عَلَيَّ . وَيَنْسَى هَؤُلاءِ أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ دِينُ البِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ، وَأَنَّ اللهَ-

(١) مريم: ٤٢- ٤٥ .
(٢) مريم: ٤٧.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ ثَنَّى بَعْدَ الوَصِيَّةِ بِعِبَادَتِهِ وَعَدَمِ الشِّرْكِ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، لَكِنَّ بِرَّهُمَا وَطَاعَتَهُمَا وَالإِحْسَانَ إِلَيْهِمَا لا يَكُونُ فِي مَا يُغْضِبُ اللهَ- عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ- تَعَالَى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ فَحَسْبُ بَلْ أَتْبَعَهَا مُبَاشَرَةً بِقَوْلِهِ- تَعَالَى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وَقَالَ ﷺ: «**لا طَاعَةَ لِـمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[1].

الحِكْمَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي نَصِيحَةِ الابْنِ لأَبِيهِ:

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

إِنَّ البِرَّ بِالوَالِدَيْنِ لَيُوجِبُ عَلَى الابْنِ أَنْ تَكُونَ مُعَامَلَتُهُ مَعَ أَبِيهِ بِكُلِّ أَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ، وَإِذَا مَا بَدَرَ مِنْ الوَالِدِ أَيُّ تَقْصِيرٍ فَلا بُدَّ مِنْ الحِكْمَةِ فِي نُصْحِهِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ النَّصِيحَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلا أَنْ تَكُونَ جَارِحَةً لِـمَشَاعِرِهِ وَمُؤْذِيَةً لأَحَاسِيسِهِ، وَلا مُنْسِيَةً لِقَدْرِهِ وَمَكَانَتِهِ.

فَمَا أَجْمَلَ الابْنُ عِنْدَمَا يَسْتَهِلُّ نَصِيحَتَهُ لأَبِيهِ بِكَلام الوُدِّ وَالمَحَبَّةِ لأَبِيهِ فَيَقُولُ: يَا أَبَتِ أَنْتَ تَاجُ رُؤُوسِنَا، أَنْتَ فَخْرُنَا

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٠) (١٥٠٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢٠).

وَعِزُّنَا، وَإِنَّ التَّدْخِينَ مُضِرٌّ بِصِحَّتِكَ الَّتِي تَهِمُّنَا، أَوْ إِنَّ الصَّلاةَ هِيَ عِمَادُ دِينِنَا وَمَنْ يَتْرُكُهَا يَتَعَرَّضُ لِعَذَابِ رَبِّنَا وَنَحْنُ لا نُرِيدُ لَكَ العَذَابَ وَلا العِقَابَ، نُحِبُّكَ يَا أَبَانَا يَا حَبِيبَنَا.

أَيُّهَا الآبَاءُ :

أَبْنَاؤُكُمْ يُكِنُّونَ لَكُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَحَبَّةً لَوْ حُجِّمَتْ مَا وَسِعَهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، فَإِذَا نَصَحُوكُمْ وَنَبَّهُوكُمْ فَلا تُكَابِرُوا وَلا تَتَعَالُوا عَلَى الحَقِّ فَهَا هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ- وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي تُقَاهُ وَوَرَعِهِ وَمَكَانَتِهِ- لَمْ يُعْرِضْ عَنْ نَصِيحَةِ ابْنِهِ، بَلْ اعْتَبَرَ لِنَفْسِهِ وَأَعْطَى كُلَّ الآبَاءِ مِنْ بَعْدِهِ دَرْساً وَهُوَ: أَنَّ ابْنَكَ عِنْدَمَا يَدُلُّكَ عَلَى الخَيْرِ فَارْفَعْ رَأْسَكَ عَالِياً، وَاعْلَمْ أَنَّهُ خَيْرٌ أَرَادَهُ اللهُ لَكَ فَاحْمَدِ اللهَ عَلَيْهِ وَلِذَا قَالَ عُمَرُ : الحَمْدُ لله الَّذِي أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِي مَنْ يُعِينُنِي عَلَى دِينِي.

فَهَلْ نَحْنُ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ؟

الدروس المستفادة من القصة:

١- الابْنُ مَأْمُورٌ بِالبِرِّ بِوَالِدَيْهِ وَمِنْ بِرِّهِمَا نَصِيحَتُهُمَا وَإِرْشَادُهُمَا.

٢- عِنْدَمَا يُخْطِئُ الأَبُ فَمَهْمَا كَانَ خَطَؤُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَخْدِشُ

فِي مَقَامِ الأُبُوَّةِ عِنْدَهُ.

٣- النَّصِيحَةُ مِنَ الابْنِ لأَبِيهِ لا بُدَّ أَنْ تَكُونَ بِأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ.

٤- الابْنُ عِنْدَمَا يَنْصَحُ أَبَاهُ فَلَيْسَ تَجْرِيحاً لَهُ وَلا انْتِقَاصاً لِمَقَامِهِ بَلْ مَحَبَّةٌ لَهُ وَإِشْفَاقٌ عَلَيْهِ.



[٢]

الطِّبَاعُ سرَّاقَة

الطِّباعُ سَرَّاقَةٌ

قَالَ أَحْمَدُ شَوْقِي(١):

أَنْبِئْتُ أَنَّ سُلَيْمَانَ الزَّمانِ وَمَنْ ... أَصْبَى الطُّيورَ، فَناجَتْهُ وَناجاها

أَعْطَى بَلابِلَهُ يَوْماً يُؤَدِّبُها ... لِحُرْمَةٍ عِنْدَهُ لِلْبُوم يَرْعاها

وَاشْتاقَ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ رُؤْيَتَها ... فَأَقْبَلَتْ وَهِيَ أَعْصَى الطَّيْرِ أَفْواها

أَصابَها الْعِيُّ حَتَّى لا اقْتِدارَ لَها ... بِأَنْ تَبُثَّ نَبِيَّ الله شَكْواها

فَنالَ سَيِّدَها مِنْ دائِها غَضَبٌ ... وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ بِالذَّبْحِ داواها

فَجاءَهُ الْهُدْهُدُ المعْهودُ مُعْتَذِراً ... عَنْها، يَقولُ لِمَوْلاهُ وَمَوْلاها

بَلابِلُ الله لَمْ تَخْرَسْ، وَلا وُلِدَتْ ... خُرْساً، وَلَكِنَّ بُومَ الشُّؤْمِ رَبَّاها

فَتِّشْ عنِ المُرَبِّينَ:

إِنَّ البلابِلَ عِنْدَمَا تَشْدُو وَتُغَرِّدُ فَإِنَّهَا تُطْرِبُ الأَسْمَاعَ بِصَوْتِهَا الشَّجِيِّ، وَتُسْعِدُ النُّفُوسَ بِتَرَنُّمِهَا العَذْبِ النَّدِيِّ، وَلَكِنْ إِذَا أَمْسَكَ بِعَنَانِهَا مَنْ يَتَلاعَبُ بِخِلْقَتِهَا، وَيُشَوِّهُ مِنْ خَصَائِصِهَا، فَإِنَّهُ سَيُفْقِدُهَا بَرِيقَهَا، وَيُعَطِّلُ تَغْرِيدَهَا، وَيَجْعَلُهَا مُشَوَّهَةَ الخِلْقَةِ، تَنْفُرُ مِنْهَا النُّفُوسُ، وَلا تَرْغَبُ فِي سَمَاعِ صَوْتِهَا الآذَانُ .

(١) القصيدة عنوانها (البلابل التي رباها البوم).

اختِيارُ الزَّوْجَةِ هُوَ أَساسُ التَرْبِيَةِ:

أَيُّهَا الآبَاءُ أَيُّهَا المُرَبُّونَ:

إِنَّ أَوْلادَكُمْ أَمَانَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْهَا أَمَامَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُمْ مَا أَنْ يَفْتَحُوا أَعْيُنَهُمْ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا إِلا وَيَجِدُونَ آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ أَمَامَهُمْ، فَلا يَجِدُونَ مُعَلِّماً يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَلا مُرَبِّياً يَتَرَبُّونَ عَلَى يَدَيْهِ إِلا آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، فَالأُمُّ تَبْتَسِمُ لِطِفْلِهَا وَتَحْضُنُه وَتَحْنُو عَلَيْهِ، فَتَرَاهُ يَرْضَعُ مِنْ حَنَانِهَا، وَيَرْشُفُ مِنْ شَفَقَتِهَا، وَيَتَعَلَّمُ مِنْ حُنُوِّهَا وَعَطْفِهَا فَهِيَ الَّتِي تُطْعِمُهُ إِذَا جَاعَ، وَتُدْفِئُهُ إِذَا بَرَدَ، وَتُضْحِكُهُ إِذَا بَكَى، وَتُبْعِدُ عَنْهُ الشَّرَّ وَالأَذَى فَلِكُلِّ ذَلِكَ يَرَاهَا المعَلِّمَ الأَوَّلَ لَهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ.

فَيَا أَيُّهَا الآبَاءُ لا بُدَّ لَكُمْ مِنْ زَوْجَاتٍ صَالِحَاتٍ لِيَكُنَّ مَدَارِسَ وَمَعَاهِدَ وَجَامِعَاتٍ لأَبْنَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ.

فَهَذِهِ أَوَّلُ خُطْوَةٍ مِنْ خُطْوَاتِ السَّيْرِ عَلَى المنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ الصَّحِيحِ لأَوْلادِكُمْ وَفَلَذَاتِ أَكْبَادِكُمْ.

وَهَذَا مَا أَوْصَانَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ بِقَوْلِهِ: «**تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ، فَانْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِم**»(١). وَهَذَا الأَمْرُ إِنَّمَا هُوَ لِتَكُونَ الزَّوْجَةُ

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨)، والبيهقي في الكبرى (١٣٥٣٦) وحسنه الألباني.

الصَّالِحَةُ مَعْدناً طَيِّباً وَقُدْوَةً حَسَـنَةً لأطْفَالِهَـا، وَمَـا تَهَـاوَى صَرْحُ أُمَّتِنَا، وَتَـدَاعَى بُنْيَانُهَـا إلا لَـمَّا فَقَـدَتْ وَظِيفَـةُ الأُمُومَـةِ بَرِيقَهَـا، وَخَفَتَ لمعَانُهَـا، فَـأَدَّى ذَلِـكَ إِلَى انْهِيـارٍ مُـدَوٍّ فِي القِـيَمِ وَالمَبَـادِئِ وَالأَخْلاقِ، لأَنَّ مِنْ شَأْنِ هَذَا الأَمْرِ أَنْ يُنْشِئَ جِيلاً فَاشِلاً مُسْتَهْتِراً لَيْسَ لَهُ هَدَفٌ وَلا غَايَـةٌ فِي الحَيَـاةِ إِلا اللَّهْـوُ وَاللَّعِـبُ، وَالطَّعَـامُ وَالشَّرَابُ.

وَمِنْ هَذَا البَابِ يَقُولُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمُ:

الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا ... أَعْدَدْتَ شَعْباً طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ فَإِنَّهَا ... فِي الشَّرْقِ عِلَّةُ ذَلِكَ الإِخْفَاقِ

فَالأُمُّ هِيَ المَرْحَلَةُ الأُولَى مِنْ مَرَاحِلِ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ.

فَاخْتِيَارُ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ هُو اخْتِيَارٌ لِلْمَنْبَتِ الصَّـالِحِ لِلأَبْنَـاءِ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فَالْوَالِـدُ كَـالمزَارِعِ فِي البِدَايَـةِ يَخْتَـارُ الأَرْضَ الصَّالِحَةَ لِلزِّرَاعَةِ وَتَكُونُ أَرْضاً طَيِّبَةً لِيَكُونَ الثَّمَرُ طَيِّباً وَكَمَا قَالَ- تَعَالَى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[1].

فَاخْتِيارُ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ فِي بِدَايَةِ المِشْوَارِ مِنْ أَهَمِّ الأَشْـيَاءِ فِي تَرْبِيَـةِ الأَوْلادِ. قَـالَ الرَّسُـولُ ﷺ: «**تُـنْكَحُ المـرْأَةُ لأَرْبَـعٍ: لمالها**

(١) الأعراف: ٥٨.

ولحسَبِهَا ولجمَالِهَا ولدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[1].

فَهَـذِهِ المـرْأَةُ الَّتِـي سَـيْخَتَارُهَا سَـتكُونُ زَوْجَـةً لَـهُ.. وَأَمَّـا لأَبْنَائِهِ..وَشَرِيكَةً مَعَهُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِ، وَهُوَ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الأَبْنَـاءِ عَلَى آبَائِهِمْ.

فَأَيُّهَا الأَبُ لا يَنْبَغِي أَنْ تَدَعَهُمْ لِتَرْبِيَةِ الخَادِمَاتِ (وَالَّتِي غَالِبـاً مَا تَكُونُ مِنْ غَيْرِ المسْلِمِينَ) وَلا لِلْفَضَائِيَّاتِ المدَمِّرَةِ وَالَّتِي تَـدَّعِي أَنَّهَا تُسَلِّي الطِّفْلَ وَتَشْغَلُ وَقْتَهُ وَلَكِنَ فِيهَا السُّمُّ النَّقَّاعُ الَّذِي يُـدَمِّرُ أَطْفَالَنَا وَيُخَرِّبُ عُقُولَهُمْ.

اختَرْ مُعَلِّماً لابْنِكَ:

أَمَّا المرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاحِلِ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ فَهِيَ اخْتِيَـارُ المعَلِّـمِ وَالمؤَدِّبِ للطِّفْلِ فَيَنْبَغِي عَلَى الأَهْلِ عِنْدَمَا يَخْتَارُونَ مُعَلِّماً لأَبْنَائِهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى دِرَايَةٍ تَامَّـةٍ وَعِلْـمٍ كَامِـلٍ بِهَـذَا المعَلِّـمِ وَتَوَجُّهَاتِـهِ وَأَفْكَارِهِ؛ فَالطِّفْلُ يَتَلَقَّى مِنْ مُعَلِّمِهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً رُبَّمَا يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي تَوْجِيهِهِ وَتَرْبِيَتِهِ وَأَخْلاقِهِ.

وَيَنْبَغِي أَيْضاً أَنْ تَرْفَعَ مِنْ شَأْنِ المعَلِّمِ فِي نَظَرِ وَلَدِكَ؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الطِّفْلَ مُؤَدَّباً مَعَ مِنْ يُعَلِّمُهُ فَيَحْتَرِمَـهُ وَيُقَـدِّرَهُ،

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

وَيَكُونَ لِلْمَعْلُومَةِ المُتَلَقَّاةِ مِنْهُ مَكَانَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تُحَفِّزُهُ عَلَى تَطْبِيقِهَا وَالعَمَلِ بِهَا.

وَلَقَدْ كَانَ الخُلَفَاءُ وَالمُلُوكُ وَالأُمَرَاءُ وَكَذَلِكَ كُلُّ العُقَلاءِ يَنْتَقُونَ مُعَلِّمِي أَوْلادِهِمْ وَمُرَبِّيهِمْ مِنْ خِيرَةِ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ ثُمَّ يُوصُونَهُمْ بِمَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْلادُهُمْ.

فَمَثلاً انْظُرْ مَاذَا يَقُولُ عَبْدُ المَلِكِ بْن مَرْوانَ لِمُؤَدِّبِ أَوْلادِهِ: «رَوِّ بَنِيَّ الشِّعْرَ يَعْرِفُوا بِهِ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ، وَلا تُرَوِّهِمْ شِعْرَ هُذَيْل فَتُزَيِّنْ لَهُمْ الفِرَارَ، وَلا شِعْرَ أُحَيْحَةَ بْنِ الجَلاح فَتُحَسِّنُ لَهُمْ البُخْلَ».

وَكَذَلِكَ مَا أَوْصَى بِهِ عَمْرو بْنُ عُتَيْبَةَ مُؤَدِّبَ أَوْلادِهِ فَقَالَ: (لِيَكُنْ أَوّلَ إِصْلاحِكَ لِوَلَدِي إِصْلاحُكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ عُيُونَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالحُسْنُ عِنْدَهُمْ مَا صَنَعْتَ، وَالقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَ. عَلِّمْهُمْ كِتَابَ الله وَلا تُكْرِهَهُمْ عَلَيْهِ فَيَمَلُّوهُ، وَلا تَتْرُكْهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ؛ رَوِّهِمْ مِنَ الحَدِيثِ أَشْرَفَه، وَمِنَ الشِّعْرِ أَعَفَّهُ، وَلا تَنْقُلْهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ ازْدِحَامَ الكَلامِ فِي القَلْبِ مَشْغَلَةٌ لِلْفَهْمِ، وَعَلِّمْهُمْ سُنَنَ الحُكَمَاءِ، وجَنِّبْهُمْ مُحَادَثَةَ النِّسَاءَ، وَلا تَتّكِلْ عَلَى عُذْرٍ مِنّي لَكَ، فَقَدْ اتَّكَلْتُ عَلَى كِفَايَةٍ

مِنْكَ)[(١)].

وَرَوَى ابْنُ خَلْدُونَ فِي مُقَدِّمَتِهِ أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ لَـمَّا دَفَعَ وَلَدَهُ الأَمِينَ إِلَى المُؤَدِّبِ قَالَ لَهُ : [يَا أَحْمَرُ، إِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةَ نَفْسِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً، وَطَاعَتُهُ لَكَ وَاجِبَةٌ، فَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، أَقْرِئْهُ القُرْآنَ، وَعَرِّفْهُ الأَخْبَارَ، وَرَوِّهِ الأَشْعَارَ، وَعَلِّمْهُ السُّنَنَ، وَبصِّرْهُ بِمَوَاقِعِ الكَلامِ، وَامْنَعْهُ مِنْ الضَّحِكِ إلا فِي أَوْقَاتِهِ، وَلا تَمُرَّنَّ بِكَ سَاعَةٌ إِلا وَأَنْتَ مُغْتَنِمٌ فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا، وَلا تُمْعِنْ فِي مُسَامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِي الفَرَاغَ وَيَأْلَفُهُ، وَقَوِّمْهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالقُرْبِ وَالمُلايَنَةِ فَإِنْ أَبَاهُمَا فَعَلَيْكَ بِالشِّدَّةِ وَالغِلْظَةِ][(٢)].

إِذَنْ فَالأَهْلُ وَالمُعَلِّمُونَ وَالمَدْرَسَةُ وَالبَيْتَ شَرَكَاءُ فِي تَرْبِيَةِ الأَوْلادِ فَكُلٌّ مِنْهُمْ مُكَمِّلٌ لِلآخَرِ وَمُتَضَامِنٌ فِي المَسْؤُولِيَّةِ، فَلَيْسَ مِنْ الصَّوَابِ أَنْ يَتَصَوَّرَ الآبَاءُ أَنَّ المَدْرَسَةَ وَحْدَهَا هِيَ المَسْؤولَةُ عَنْ تَرْبِيَةِ الأَوْلادِ، أَوْ تَتَخَلَّى المَدْرَسَةُ عَنْ مَسْؤُولِيَّتِهَا التَّرْبَوِيَّةِ، لِذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ أَنْ يَتَحَمَّلُوا مَسْؤُولِيَّتَهُمْ مَعَ

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٢٣٤).

(٢) جمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، (٣/ ٨٥).

الْمَدْرَسَةِ فِي تَرْبِيةِ أَوْلادِهِمْ وَذَلِكَ مِنْ خَلالِ :

١ - التَّرَدُّدِ الْمُسْتَمِرِّ عَلَى الْمَدْرَسَةِ وَالسُّؤَالِ عَنِ الأَوْلادِ تَرْبَوِياً وَتَعْلِيمِياً.

٢ - التَّوَاصُلِ الدَّائِمِ مَعَ المعَلِّمِينَ وَالمعَلِّمَاتِ القَائِمِينَ عَلَى تَرْبِيةِ الأَوْلادِ.

٣ - التَّفَاعُلِ مَعَ أَنْشِطَةِ الْمَدْرَسَةِ وَدَفْعِ الأَوْلادِ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِيهَا.

٤ - مُشَارَكَةِ الْمَدْرَسَةِ بِالْمُقْتَرَحَاتِ وَالجُهُودِ التي تُجَوِّدُ العَمَلَ وَتُطَوِّرُهُ، مِمَّا يَعُودُ بِالفَائِدَةِ عَلى أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا .

٥ - تَرْبِيةِ الأَوْلادِ عَلَى احْتِرَامِ المعَلِّمِينَ وَالتَّوَاصُلِ مَعَ الزُّمَلاءِ وَالحِفَاظِ عَلَى النِّظَامِ الْمَدْرَسِيِّ .

عَلِّمُوهُمْ كَيْفَ يَخْتَارُونَ أَصْدِقَاءَهُمْ:

أَمَّا الْمَرْحَلَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاحِلِ تَرْبِيةِ الطِّفْلِ فَهِيَ اخْتِيَارُ الأَصْدِقَاءِ وَلَسْنَا نَعْنِي أَنْ يَخْتَارَ الآبَاءُ أَصْدِقَاءَ أَبْنَائِهِمْ، وَلَكِنْ أَنْ يُعَلِّمُوهُمْ مِنْ يُرَافِقُونَ وَمَنْ يُصَاحِبُونَ وَمَنْ يَتَجَنَّبُونَ مِنَ الأَصْدِقَاءِ وَالرُّفَقَاءِ، فَالصَّاحِبُ لَهُ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ عَلَى سُلُوكِ الأَطْفَالِ وَأَخْلاقِهِمْ، وَكَمْ مِنْ أَبْنَاء وَبَنَاتٍ كَانُوا عَلَى خُلُقٍ وَدِينٍ وَتَرْبِيةٍ

إِسْلامِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَلَكِنْ لَـمَّا تَلَقَّفَهُمْ رُفَقَاءُ السُّوءِ انْقَلَبُوا رَأْساً عَلَى عَقِبٍ وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[(١)] .

كَثُرَ الْمُرَبُّونَ فِي زَمَانِنَا:

وَلَقَدْ زَادَ عَدَدُ الْمُرَبِّينَ فِي زَمَانِنَا هَذَا؛ فَقَدْ أَصْبَحَتِ الفَضَائِيَّاتُ تُرَبِّي، وَالإِنْتَرْنِت يُرَبِّي، وَالإِذَاعَاتُ تُرَبِّي، وَوَسَائِلُ اللَّهْوِ واللَّعِبِ تُرَبِّي، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاءِ يُرِيدُ أَنْ يُصْقِلَ شَخْصِيَّةَ الطِّفْلِ وَيُوَجِّهَ أَفْكَارَهُ حَسْبَ مَا يُرِيدُ.

هَؤُلاءِ هُمُ الْمُرَبُّونَ الَّذِينَ يُعِينُونَ الأَبَ وَيُنَازِعُونَهُ عَلَى تَرْبِيةِ أَوْلادِهِ فَإِذَا أَحْسَنَ الانْتِقَاءَ وَالاخْتِيَارَ فَقَدْ صَلُحَتْ الثَّمَرَةُ وَحَسُنَتْ النَّتِيجَةُ وَإِلا فَإِذَا لَمْ يُحْسِنِ اخْتِيَارَ الأُمِّ الصَّالِحَةِ وَتَرَكَهُمْ عُرْضَةً لِلْمُعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَبُثُّون أَفْكَارَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ الفَاسِدَةَ، وَإِذَا لَمْ يَعْلَمْ مَعَ مَنْ يَمْشُونَ وَمَنْ يُخَالِطُونَ وَيُصَاحِبُونَ وَلَمْ يَرْصُدْ مَا يُشَاهِدُونَ وَمَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْ وَسَائِلِ الإِعْلامِ وَالإِنْتَرْنِتِ وَالفَضَائِيَّاتِ فَعِنْدَهَا سَيَكُونُ الْمَآلُ والجَوَابُ كَمَا قَالَ الهُدْهُدُ:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) وقال : «حديث حسن غريب»، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، وحسنه الألباني.

بَلابِلُ اللهِ لَمْ تَخْرَسْ وَلا وُلِدَتْ خُرْساً وَلَكِنْ بُومُ الشُّؤمِ رَبَّاهَا

وَكَذَلِكَ سَيُصْبِحُ الأَبْنَاءُ أَيْتاماً لأَنَّ آبَاءَهُمْ مَوْجُودُونَ وَلَكِنْ كَوُجُودِ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ فِي الدُّنْيَا لَهُمْ لا يَهْتَمُّونَ بِأَبْنَائِهِمْ، لا يُفَتِّشُونَ عَنْ أُمُورِهِمْ، لا يَعْرِفُونَ مَنْ أَصْدِقَاؤُهُمْ..

وَكَمَا قِيلَ:

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنْ مَاتَ أَبَوَاهُ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلا

إِنَّ الْيَتِيمَ من تَلْقَى لَهُ أُمّاً تَخَلَّتْ أَوْ أَبَاً مَشْغُولا

الدروس المستفادة من القصة:

١ - اخْتِيَارُ الزَّوْجَةِ أَوَّلُ مَرَاحِلَ التَّرْبِيةِ السَّلِيمَةِ لِلأَبْنَاءِ.

٢- اخْتِيَارُ الْمُعَلِّمِ أَسَاسٌ مِنْ أُسُسِ التَّرْبِيةِ .

٣- كَمْ مِنْ أَبْنَاء وَبَنَاتٍ كَانُوا عَلَى خُلُقٍ وَدَينٍ وَتَرْبِيةٍ إِسْلامِيَّةٍ صَحِيحَةٍ، وَلَكِنْ لَـمَّا تَلَقَّفَهُمْ رُفقَاءُ السُّوءِ انْقَلَبُوا رَأْساً عَلَى عَقِبٍ وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ فَلِذَا لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الأَبَوِيْنِ مَنْ يُرَافِقُ أَبْنَاءَهُمْ.



[٣]

أَوْلادُنا وَالصَّلاة

أَوْلادُنَا وَالصَّلاةُ

بَعَثَ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ ابْنَهُ عُمَرَ إِلَى المَدِينَةِ يَتَأَدَّبُ بِهَا وَكَتَبَ إِلَى صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ يَتَعَاهَدُهُ، وَكَانَ يُلْزِمُهُ الصَّلَوَاتَ فَأَبْطَأَ يَوْماً عَنِ الصَّلاةِ فَقَالَ: مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: كَانَتْ مُرَجِّلَتِي تُسَكِّنُ شَعْرِي. فَقَالَ: بَلَغَ مِنْ تَسْكِينِ شَعْرِكَ أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى الصَّلاةِ؟ وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى وَالِدِهِ فَبَعَثَ عَبْدُ العَزِيزِ رَسُولاً إِلَيْهِ فَمَا كَلَّمَهُ حَتَّى حَلَقَ شَعْرَهُ[1].

أَوْلادُنَا أَمَانَةٌ يَجِبُ الاهْتِمَامُ بِهَا :

إِنَّ الأَبْنَاءَ هُمْ حَدِيثُ اليَوْمِ وَحَدِيثُ الأَمْسِ وَحَدِيثُ الغَدِ، بَلْ إِنَّهُمْ مَاضٍ وَحَاضِرٌ وَمُسْتَقْبَلٌ فِي آنٍ وَاحِدٍ، فَمُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى وَجْهِ هَذِهِ الأَرْضِ كَانَ اهْتِمَامُهُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْلادٌ صَالِحُونَ قَالَ- تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

وَإِنَّ الحَيَاةَ كُلَّمَا تَعَقَّدَتْ، وَإِنَّ الفِتَنَ كُلَّمَا زَادَتْ، وَأَعْبَاءَ المَعِيشَةِ

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر ٤٥/ ١٣٦.
(٢) الأعراف : ١٨٩.

كُلَّمَا تَضَاعَفَتْ، زَادَ ذَلِكَ مِنْ ثِقَلِ التَّرْبِيَةِ عَلَى كَاهِلِ الأَهْلِ، وَمَا مِنْ أَهْلٍ إِلا وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَوْلادَهُمْ سَيَنْشَؤُونَ كَمَا يُرَبُّونَهُمْ هُمْ، وَكَمَا يُعَلِّمُونَهُمْ هُمْ لأَنَّ أَوْلادَهُمْ يُولَدُونَ صَفْحَةً بَيْضَاءَ نَاصِعَةً، والأَهْلُ يَنْقُشُونَ فِيهَا عُلُومَهُمْ وَتَرْبِيَتَهُمْ وَمَبَادِئَهُمْ.

قَالَ الرسول ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ**»[1]. فَالأَبَوَانِ مِنْ خِلالِ تَرْبِيَتِهِمَا وَسُلُوكِهِمَا مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ إِنَّمَا يَنْقُشُونَ صُورَةً عَلَى سُلُوكِ أَوْلادِهِمْ إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ شَراً فَشَرٌّ.

مَشَى الطَّاوُوسُ يَوْماً بِاخْتِيَالٍ ... فَقَلَّدَ شَكْلَ مِشْيَتِهِ بَنُوهُ
فَقَالَ عَلامَ تَخْتَالُونَ؟ قَالُوا ... بَدَأْتَ بِهِ وَنَحْنُ مُقَلِّدُوهُ
فَقَوِّمْ مَشْيَكَ المُعْوَجَّ إِنَّا ... إِنْ عَدَلْتَ بِهِ مُعَدِّلُوهُ
وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ فِينَا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ

لِنُرَبِّ أَوْلادَنَا كَمَا تَرَبَّى الصَّالِحُونَ :

فِي خِضَمِّ هَذِهِ الحَيَاةِ، وَفِي مُعْتَرَكِ هَذِهِ الفِتَنِ الَّتِي تَحُوطُنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ تَرَى الأَهْلَ يَبْحَثُونَ عَنْ مُنْجِدٍ يُنْجِدُهُمْ، وَيَنْشُدُونَ

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

رَائِداً يَنْصَحُهُمْ، وَيَبْغُونَ مُعَلِّماً وَمُجَرِّباً يَدُلُّهُمْ كَيْفَ يُرَبُّونَ أَوْلادَهُمْ.

إِنَّ أَعْظَمَ سَبِيلٍ وَأَنْجَعَ دَلِيلٍ فِي تَرْبِيَةِ الأَبْنَاءِ هِيَ النَّظَرُ فِي تَرْبِيَةِ الصَّالِحِينَ كَيْفَ تَعَلَّمُوا؟ كَيْفَ تَأَدَّبُوا؟ كَيْفَ تَرَبَّوْا؟ وَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِينَا فِي هَذَا المَوْضُوعِ أُنْمُوذَجاً لِجَبَلٍ أَشَمَّ فِي التُّقَى وَالصَّلاحِ بَلْ فِي الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ الرَّاشِدَةِ أَيْضَا إِنَّهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ خَامِسُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ.

هَذَا مَوْقِفٌ وَاحِدٌ مِنْ تَرْبِيَةِ أَبِيهِ عَبْدِ العَزِيزِ لَهُ، أَبُوهُ أَمِيرُ مِصْرَ وَوَالِيهَا، أَمَّا ابْنُهُ عُمَرُ فَقَدْ بَعَثَهُ أَبُوهُ لِيَتَأَدَّبَ وَيَتَعَلَّمَ فِي مَنْبَعِ النُّورِ، مَدِينَةِ الرَّسُولِ- عليه الصلاة والسلام، وَوَكَّلَهُ إِلَى عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ المُسْلِمِينَ هُوَ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ لِيُؤَدِّبَهُ وَيُعَلِّمَهُ، فَأَدَّبَهُ أَحْسَنَ تَأْدِيبٍ وَعَلَّمَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمٍ وَيَتَعَلَّق هَذَا المَوْقِفُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ الحَدِيثِ عَنْهُ بِالصَّلاةِ الَّتِي- وَلِلأَسَفِ- أَصْبَحَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَمْراً مَنْسِياً، كَانَ صَالِحُ يُعَلِّمُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ الصَّلَوَاتِ وَيُلْزِمُهُ بِهَا وَيَصْحَبُهُ إِلَى المَسْجِدِ، وَفِي مَرَّةٍ مِنَ المَرَّاتِ، وَوَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ، وَصَلاةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ الصَّلَوَاتِ -وَهُنَا أُشَدِّدُ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَضَعُ تَحْتَهَا خُطُوطاً كَثِيرَةً لِكَي لا تُنْسَى-

تَأَخَّرَ الطِّفْلُ عَنِ الصَّلاةِ وَأَبْطَأَ عَلَى مُعَلِّمِهِ، لَكِنَّ المُعَلِّمَ لَمْ يَتْرُكْ الأَمْرَ يَمُرُّ مُرُورَ النَّسِيمِ العَلِيلِ، وَلَمْ يَدَعْ المَوْقِفَ يَذْهَبَ هَكَذَا دُونَ تَبْرِيرٍ أَوْ تَعْلِيلٍ، بَلْ سَأَلَهُ أَوَّلَ مَا رَآه: مَا حَبَسَكَ عَنْ الصَّلاةِ؟ وَهُنَا لِيَسْأَلْ كُلُّ أَبٍ نَفْسَهُ كَمْ سَأَلَ ابْنَهُ عَنِ الصَّلاةِ؟ كَمْ تَابَعَ ابْنَهُ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَوَاتِ؟

كَانَ جَوَابُ الطِّفْلِ عُمَرَ: كَانَتْ مُرَجِّلَتِي تُسَكِّنُ شَعْرِي.

هُنَا لَمْ يَقْبَلْ صَالِحُ مِنْ عُمَرَ التَّعْلِيلَ، وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُ كَبِيرٌ أَوْ صَغِيرٌ، أو إِنَّهُ ابْنُ سُوقَةٍ أَوْ أَمِيرٍ، بَلْ نَظَرَ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ أَمَانَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يَجِبُ أَنْ يَحْفَظَهَا وَيَرْعَاها، فَقَالَ: وَهَلْ بَلَغَ مِنْ تَسْكِينِ شَعْرِكَ أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى الصَّلاةِ؟

مَوْقِفٌ يَبْدُو بَسِيطاً، وَأَمْرٌ يَظْهَرُ أَمْراً عَادِياً، لَكِنَّ المُعَلِّمَ الأَمِينَ يَبْعَثُ رَسُولاً مِنْ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ إِلَى مِصْرَ فِي ذَاكَ الزَّمَانِ حَيْثُ لا هَوَاتِفَ نَقَالَةً وَلَا طَائِرَاتٍ وَلا سَيَّارَاتٍ وَلا فَضَائِيَّاتٍ وَلا إِيمِيلات. رُسُولٌ سَيُسَافِرُ مِنَ المَدِينَةِ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَجْلِ صَلاةٍ تَأَخَّرَ عَنْهَا طِفْلٌ بِسَبَبِ تَسْكِينِ شَعْرِهِ. أَتَدْرُونَ مَاذَا كَانَ مَوْقِفُ الوَالِدِ أَمِيرِ مِصْرَ لَمْ يَقُلْ: مَاذَا فَعَلَ ابْنِي حَتَّى تُرْسِلَ إِلَيَّ رَسُولاً؟ وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ طِفْلِي المُدَلَّلُ. وَلَمْ يَقُلْ: عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَمَّلَهُ وَتَصْبِرَ

عَلَيْهِ. بَلْ كَانَ وَالِداً بِحَقٍّ فَأَرْسَلَ رَسُولاً خَاصّاً مِنْ مِصْرَ إِلَى المَدِينَةِ لِيَتَدَارَكَ المَوْقِفَ الجَلَلَ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، فَمَا أَنْ وَصَلَ المَدِينَةَ حَتَّى جَاءَ إِلَى عُمَرَ فَمَا كَلَّمَهُ حَتَّى حَلَقَ شَعْرَهُ كَيْ لا تَشْغَلَهُ مَرَّةً أُخْرَى عَنْ الصَّلاةِ. هَكَذَا تَكُوُن التَّرْبِيةُ وَعَلَى هَذَا الأُنْمُوذَجِ يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرَ الْمُعَلِّمُونَ وَالْمُرَبُّونَ فَالتَّهَاوُنُ فِي الصَّلاةِ أَمْرٌ خَطِيرٌ، لأَنَّ الصَّلاةَ هِيَ سِيَاجٌ وَاحِدٌ يَقِي مِنَ الذُّنُوبِ، وَيُبْعِدُ عَنْ الخَطَايَا، وَيُبَاعِدُ عَنِ الفَوَاحِشِ.

قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ . وَلِذَا حَرِصَ النَّبِيُّ ﷺ أَلاَّ يَكُونَ طِفْلٌ مُسلِمٌ يَتَجَاوَزُ العَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ إلا وَهُوَ مُحَافِظٌ عَلَى الصَّلاةِ وَإِلا فَإِنَّهُ يُضْرَبُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ**»(١).

يَا أَيُّهَا الآبَاءُ رَبُّوا أَوْلادَكُمْ عَلَى دِينِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَإِذَا أَوْكَلْتُمْ أَمْرَ تَرْبِيَتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ لِمُعَلِّمِينَ وَمُرَبِّينَ تَثِقُونَ بِهِمْ فَأَعِينُوهُمْ وَلا تَكُونُوا عَثْرَةً فِي طَرِيقِ تَعْلِيمِهِمْ لأَبْنَائِكُمْ؛ فَهُمْ وَإِنْ قَسَوْا عَلَيْهِمْ فَلأَجْلِ إِصْلاحِهِمْ وَتَقْوِيمِهِمْ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

وَكَمَا قِيلَ:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ زَاجِراً فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

أيها المعَلِّمُونَ:

لا تُدَاهِنُوا فِي أَمْرِ التَّرْبِيةِ أَبَداً، لا تُسَاوِمُوا فِي تَعْلِيمِ دِينِ اللهِ أَبَداً، لأَنَّ مَنْ تُعَلِّمُونَهُمْ أَمَانَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ سَتُسْأَلُونَ عَنْهَا أَمَامَ اللهِ ـ تَعَالَى ـ فَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَإِنَّ أَعْظَمَ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ تَأْدِيبِ الأَبْنَاءِ هِيَ تَعْلِيمُهُمْ الصَّلاةَ وَغَرْسُ مَحَبَّتِهَا فِي قُلُوبِهِمْ لِيَقُومُوا بِحُقُوقِهَا خَيْرَ قِيَامٍ فَهِيَ الشَّعِيرَةُ العَظِيمَةُ الَّتِي وَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**وَالصَّلاةُ نُورٌ**»(١). وحَسَبُهَا للدِّينِ عِمَاداً وَهِيَ الصِّلَةُ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ العَبْدِ وَخَالِقِهِ وَهِيَ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ خَمْسُ مَرَّاتٍ، وَهِيَ مَحَطَّاتٌ وَوَقَفَاتٌ لِلْخَلْوَةِ بِالإِلَهِ العَظِيمِ وَمُنَاجَاتِهِ وَذِكْرِهِ وتَعْظِيمِهِ- سُبْحَانَهُ.

أَيُّهَا الآبَاءُ، أيتها الأُمَّهَاتُ:

إِنّ أَوْلادَنَا أَمَانَةٌ عِنْدَنَا، وَهَبَهَا اللهُ ـ تَعَالَى ـ لَنَا، وَكَمْ نَتَمَنَّى جَمِيعاً أَنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ، وَأَنْ يُوَفِّقَهُمْ اللهُ فِي حَيَاتِهِمْ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

تَـذَكَّرْ قَـوْلَ النَّبِـيِّ ﷺ: «**كُلُّكُـمْ رَاعٍ وَكُلُّكُـمْ مَسْـؤُولٌ عَـنْ رَعِيَّتِهِ**»(١).

وَأَوْلَادُنَا سَوْفَ نُسْأَلُ عَنْهُمْ.

وَتَذَكَّرْ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(٢).

وَفِي أُسْلُوبِ مُعَامَلَةِ أَوْلادِنَا وَتَرْبِيَتِنَا لَهُمْ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ**»(٣).

لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَعْلَـمَ أَنَّ تَعْوِيـدَ الطِّفْـلِ عَـلَى الصَّـلاَةِ هَـدَفٌ حَيَوِيٌّ فِي التَّرْبِيَةِ الإِيمَانِيَّةِ لِلطِّفْلِ.

وَتَذَكَّرْ أَنَّ الطُّفُولَةَ لَيْسَتْ مَرْحَلَةَ تَكْلِيفٍ، وَإِنَّـمَا هِـيَ مَرْحَلَـةُ إِعْدَادٍ وَتَدْرِيبٍ وَتَعْوِيدٍ وُصُولاً إِلَى مَرْحَلَةِ التَّكْلِيفِ عِنْدَ الْبُلُـوغِ؛ فَيَسْهُلُ عَلَى الطِّفْلِ أَدَاءُ الوَاجِبَاتِ والفَرَائِضِ.

الدروس المستفادة من القصة:

١- الأَبْنَاءُ أَمَانَةٌ عِنْدَ أَهْلِيهِمْ سَيُسْأَلُونَ عَنْهُمْ وَعَنْ تَرْبِيَتِهِمْ.

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩).
(٢) الفرقان: ٧٤.
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٠٢) والترمذي (١٩٥١)، وضعفه الألباني.

٢- اخْتِيَارُ مُعَلِّمِ الابْنِ وَالحِرْصُ عَلَى كَوْنِهِ صَالِحاً يَخَافُ اللهَ وَيُحَافِظُ عَلَى مَا يُؤْتَمَنُ عَلَيْهِ.

٣- أَيُّ شَيْءٍ يَشْغَلُكَ عَنْ عِبَادَةِ الله لاَ قِيمَةَ لَهُ وَلَوْ كَانَ شَعْرُ رَأْسِكَ.

٤- تَأْدِيبُ الأَبْنَاءِ مَسْؤُولِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الأَهْلِ وَالمُعَلِّمِ.



[٤]

بالعَدْلِ تَحْيَا الأَسَرُ

كَمَا بهِ تَحْيَا الأَمَمُ

بالعَدلِ تَحْيَا الأُسَرُ
كَمَا بِهِ تَحْيَا الأُمَمُ

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – أَنَّ أُمَّهُ بِنْتَ رَوَاحَةَ سَأَلَتْ أَبَاهُ بَعْضَ المَوْهِبَةِ مِنْ مَالِهِ لابْنِهَا فَالْتَوَى بِهَا سَنَةً ثُمَّ بَدَا لَهُ، فَقَالَتْ : لا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مَا وَهَبْتَ لابْنِي، فَأَخَذَ أَبِي بِيَدِي، وَأَنَا غُلامٌ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ أُمَّ هَذَا بِنْتَ رَوَاحَةَ أَعْجَبَهَا أَنْ أُشْهِدَكَ عَلَى الَّذِي وَهَبْتُ لابْنِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بَشِيرُ، أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟**» قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «**أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟**» قَالَ : لا، قَالَ : «**فَلا تُشْهِدَنِي إِذاً، فَإِنِّي لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ**».

وفي رواية: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَكُلَّ بَنِيكَ نَحَلْتَ مِثْلَ الَّذِي نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟**» قَالَ: لا، قَالَ: «**فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي**»، قَالَ: «**أَلَيْسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا لَكَ فِي البِرِّ سَوَاء؟**» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**فَلا إِذاً**»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَيْضاً عِنْدَ البُخَارِيِّ : «**أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ**

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٠)، ومسلم (١٦٢٣).

مِثْلَ هَذَا؟» قَالَ : لا، قَالَ : «**فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ**» قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ[1].

أَبْنَاؤُكَ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ :

إِنَّ الأَبْنَاءَ كَحَبَّاتِ العِنَبِ عَلَى عُنْقُودِهَا لا تَكَادُ تُمَيِّزُ بَيْنَهَا، فَشَكْلُهَا وَاحِدٌ، وَلَوْنُهَا وَاحِدٌ، وَطَعْمُهَا كُلُّهَا حُلْوٌ وَلَذِيذٌ، فَلا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُفَرِّقَ بَيْنَهَا لأَنَّهَا أُخِذَتْ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَسُقِيَتْ كُلُّهَا مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، فَإِذَا سَاوَيْتَ بَيْنَهَا فَأَكَلْتَهَا اسْتَمْتَعْتَ بِطَعْمِهَا كُلِّهَا وَتَلَذَّذْتَ بِهَا، وَإِذَا أَكَلْتَ بَعْضَهَا وَتَرَكْتَ البَعْضَ الآخَرَ تَلَذَّذْتَ بِالبَعْضِ وَخَرِبَ الآخَرُ .

إِنَّ المُلامِسَ وَالمُتَتَبِّعَ لِلأَحْوَالِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي أُمَّتِنَا لَيَجِدُ فِي بَعْضِ الأُسَرِ مَنْ الآبَاءِ مَنْ لا يَخَافُ اللهَ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلادِهِ فَتَرَاهُ يُفَضِّلُ بَعْضَ أَوْلادِهِ بِأُعْطِيَاتٍ وَهِبَاتٍ، أَوْ يُقَدِّمُ البَنِينَ عَلَى البَنَاتِ، فَيُوغِرُ صُدُورَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَيَزْرَعُ بَيْنَهُمْ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ. قَدْ يُعْطِي وَاحِداً لأَنَّهُ يُشْبِهُ أَعْمَامَهُ، وَيُحْرِمُ الآخَرَ لأَنَّ فِيهِ شَبَهاً مِنْ أَخْوَالِهِ، أو يُعْطِي أَوْلادَ إِحْدَى زَوْجَتَيْهِ مَا لا يُعْطِي أَوْلادَ الأُخْرَى، وَرُبَّمَا أَدْخَلَ أَوْلادَ إِحْدَاهُمَا مَدَارِسَ خَاصَّةً دُونَ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧).

أَوْلادِ الأُخْرَى.

عَدَمُ العَدْلِ مِنْ أَسْبَابِ العُقُوقِ :

إِنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الأَوْلادِ والتَّفْرِيقَ بَيْنَهُمْ سَبَبٌ رَئِيسِيٌّ لِعُقُوقِ الوَالِدَيْنِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِكَرَاهِيَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَدَافِعٌ لِلْعَدَاوَةِ وَالشَّحْنَاءِ بَيْنَهُمْ، وَعَامِلٌ مُهِمٌّ مِنْ عَوامِلِ الشُّعُورِ بِالنَّقْصِ لَدَى المَحْرُومِينَ مِنْهُمْ، بَلَ رُبَّمَا يُصْبِحُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الأَوْلادِ مِنْ أَخْطَرِ الظَّوَاهِرِ المُؤَثِّرَةِ فِي سُلُوكِ الوَلَدِ وانْحِرَافِهِ، وَتَحَوُّلِهِ إِلَى حَيَاةِ الرَّذِيلَةِ والشَّقَاءِ والإِجْرَامِ، وَقَدْ يُسَبِّبُ القَتْلَ وَالعِيَاذُ بِالله، وَالوَاقِعُ خَيْرُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ .

فَالأَجْدَرُ بِالآبَاءِ والأُمَّهَاتِ أَنْ يَتَّقُوا اللهَ فِي أَوْلادِهِمْ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا العَدْلَ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ، وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ أَنَّهُمْ سَوَاءَ، وَلا فَضْلَ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، لا فِي المَجَالِسِ وَالتَّخَاطُبِ، وَلا فِي الزِّيَارَةِ وَالعَطَاءِ، وَمِنَ الأَهَمِيَّةِ بِمَكَانٍ تَأْكِيدُ الفَوَارِقِ بَيْنَهُمْ لا التَّفْرِقَةُ، إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَتَقَبَّلَ التَّمَايُزَ بَيْنَ أَوْلادِنَا، وَالتَّعَامُلَ مَعَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ أَشْخَاصٌ ذَوُو شَخْصِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَمَايِزَةٍ بِمَا حَبَاهُمُ اللهُ مِنْ خَصَائِصَ وَمَهَارَاتٍ، كَمَا تَتَمَايَزُ الزَّهْرَاتُ فِي الحَدِيقَةِ الوَاحِدَةِ دُونَ أَنْ يُغَيِّرَ ذَلِكَ فِي تَقَبُّلِنَا لِكُلٍّ مِنْهَا، فَنُقَدِّمُ لِلصَّغِيرَ وَالكَبِيرَ، وَنُعْطِي

البَنَاتِ وَالبَنِينَ، وَنُولِي الجَمِيعَ مِنَّا الحُبَّ وَالاهْتِمَامَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ أَعْمَارَهُمْ، وَتُلَبِّي احْتِيَاجَاتِهِمْ بِالكَيْفِيَّةِ المُنَاسِبَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ؛ فَلِكُلٍّ مِنْهُمْ شَخْصِيَّةٌ يَجِبُ تَشْجِيعُهَا وَتَنْمِيَةُ المَوَاهِبِ فِيهَا.

العَدْلُ لَيْسَ مَادِياً فَحَسْبُ :

كَانَ السَّلَفُ يَعْدِلُونَ بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ فِي المُوَاجَهَةِ، فِي طَلاقَةِ الوَجْهِ، فِي النَّظَرِ، فِي الحَدِيثِ والمُمَازَحَةِ، وَكَذَلِكَ فِي العَطْفِ والحَنَانِ، فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ عَلَى فَخِذِهِ، ثُمَّ جَاءَتْ بِنْتٌ لَهُ فَأَجَلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ قَالَ: فَهَلا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا[1].

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه أَنَّهُ ضَمَّ ابْناً لَهُ، وَكَانَ يُحِبُّهُ، فَقَالَ: يَا فُلان، وَالله إِنِّي لأُحِبُّكَ، وَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُوثِرَكَ عَلَى أَخِيكَ بِلُقْمَةٍ.

فَلِذَا مِنَ الوَاجِبِ عَلَى الآبَاءِ المُسَاوَاةُ بَيْنَ أَبْنَائِهِمْ لَيْسَ فِي الأُمُورِ المَادِّيَّةِ فَحَسْبُ بَلْ لا بُدَّ مِنَ العَدْلِ فِي الاهْتِمَامِ وَالمُدَاعَبَةِ وَالعَطْفِ وَالحَنَانِ أَيْضاً بَلْ حَتَّى فِي القُبَلِ، فَإِعْلانُ المَحَبَّةِ لِلأَبْنَاءِ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥١٠)، وعبد الرزاق في مصنفه (١٦٥٠١)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٠٩٨).

دُونَ تَمْيِيزٍ هِيَ تُرْجُمَانٌ وَإِعْلانٌ لِحُبِّ وَحَنَانِ الوَالِدَيْنِ لَهُمْ، وَمُحَاوَلَةٌ مِنْهُمْ لِلْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ المُسَاوَاةِ، إِنْ لَمْ يَنْجَحُوا فِي تَرْجَمَتِهَا وَتَجْسِيدِهَا عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ عَبْرَ التَّصَرُّفَاتِ الفِعْلِيَّةِ الَّتِي تَفْضَحُ مَا قَدْ يُخْفِيهِ الأَبُ وَالأُمُّ عَلَى حَدٍّ سَوَاءَ .

اتِّبَاعُ الحِكْمَةِ فِي العَدْلِ بَيْنَ الأَبْنَاءِ :

بَعْضُ الآبَاءِ يَظُنُّ أَنَّ العَدْلَ هُوَ مُعَامَلَةُ الأَبْنَاءِ كُلِّهِمْ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ، وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لأَنَّ بَعْضَ الأَبْنَاءِ يَحْتَاجُ إِلَى جُرْعَةٍ أَكْبَرَ مِنَ الحُبِّ، وَالآخَرِ يَحْتَاجُ إِلَى جُرْعَةِ مَدِيحٍ، وَالثَّالِثِ رُبَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَدَدٍ مِنَ العِلْمِ، وَالرَّابِعِ يَحْتَاجُ المَشُورَةَ، فَيَخْتَلِفُ عَطَاءُ الأَبِ نَحْوَ أَبْنَائِهِ بِاخْتِلافِ طَبَائِعِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ، وَالعَدْلُ الحَقِيقِي أَنْ يُعْطِيَ كُلاًّ بِحَسَبِ مَا يُرِيدُ وَيَحْتَاجُ، وَإِذَا وَحَّدَ الأَبُ عَطَاءَهُ- مِنْ حَيْثُ النَّوْعِ- فَإِنَّهُ سَيُلاحِظُ تَسَخُّطَ بَعْضِ أَبْنَائِهِ وَرِضَا بَعْضِهِمْ الآخَرِ، وَهَذَا يُوقِعُهُ فِي حَيْرَةٍ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ عَادِلاً فِي ظَنِّهِ.

مِنْ حُقُوقِهِمْ أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَهُمْ :

أَيُّهَا الآبَاءُ:

إِنَّ هَذَا العَدْلَ هُوَ حَقٌّ مَكْفُولٌ لأَبْنَائِكُمْ، وَنَتَائِجُهُ الطَّيِّبَةُ سَتَرَوْنَهَا فِي بِرِّهِمْ بِكُمْ، وَمَحَبَّتِهِمْ لِكُمْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنَّ لَهُمْ

عَلَيْكَ مِنَ الحَقِّ أَنْ تَعْدِلَ بَيْنَهُمْ كَمَا أَنَّ لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الحَقِّ أَنْ يَبِرُّوكَ.

أَمَّا الظُّلْمُ وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَهُمْ فَإِنَّهُ سَيَرْتَدُّ عَلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّ المَحْرُومَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ لا يَبَرُّ بِأَبِيهِ مُسْتَقْبَلاً، وَقَدْ قَالَ عليه الصلاة والسلام لِمَنْ فَاضَلَ بَيْنَ أَوْلادِهِ فِي العَطِيَّةِ: «**أَلَيْسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي البِرِّ سَوَاء**»[1].

البَعْضُ يَظْلِمُ أَوْلادَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ :

بَعْضُ النَّاسِ لَمْ يَكْفِهِمْ ظُلْمُ أَوْلادِهِمْ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَيَجُرُّ ظُلْمَهُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ، فَتَرَاهُ يُعْطِي أَوْلادَهُ مِنْ مَالِهِ أَوْ يَزِيدَهُمْ فَوْقَ نَصِيبِهِمْ الشَّرْعِيِّ بِنِيَّةِ حِرْمَانِ البَعْضِ الآخَرِ، وَكَذَلِكَ تَعْمَدُ بَعْضُ النِّسَاءِ إِلَى الوَصِيَّةِ بِذَهَبِهَا لِبَنَاتِهَا دُونَ أَبْنَائِهَا مَعَ أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ التَّرِكَةِ، وَهَذَا كُلُّهُ لا يَجُوزُ فَإِنَّهُ لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ مَا دَخَلَ فِي مِلْكِ الأُمِّ أَوْ الأَبِ وَمَاتَ عَنْهُ، فَهُوَ لِجَمِيعِ الوَرَثَةِ حَسْبَ أَنْصِبَتِهِمْ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَى.

آثَارُ التَّمْيِيزِ :

يَتْرُكُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الأَوْلادِ آثَاراً سَيِّئَةً عَلَى الطَّرَفَيْنِ، المُمَيَّزُ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢٣).

قِبَلِ الوَالِدَيْنِ وَالْمُمَيَّـزُ ضِـدّه، إِضَـافَةً إِلَى تَـرْكِ آثَـارٍ عَـلَى طَبِيعَـةِ التَّعْلِيمَاتِ الْمُتَّبَعَةِ فِي الأُسْرَةِ وَالتَّنْشِئَةِ الأُسَرِيَّةِ لِلأَبْنَـاءِ، وَمِـنْ أَهَـمِّ هَذِهِ الآثَارِ مَا يَلِي:

- يُظْهِرُ التَّمْيِيزُ عَلاقَةً سَلْبِيَّةً مِنَ الحَسَدِ وَالبَغْضَاءِ وَالكَرَاهِيَـةِ بَيْنَ الأَبْنَاءِ، حَيْثُ يَمِيلُ الطِّفْلُ الْمُمَيَّزُ ضِدّهُ إِلَى كُـرْهِ أَخِيـهِ الآخَـرِ وَغَيْرَتِهِ مِنْهُ لِكَوْنِهِ مُقَرَّباً مِنْ وَالِدَيْهِ، وَحَسَدِهِ عَلَى الحَنَانِ وَالرِّعَايَةِ الَّتِي يَحْظَى بِهَـا وَالَّتِـي جَـاءَتْ عَـلَى حِسَـابِ وُجُـودِهِ وَحَاجَاتِـهِ النَّفْسِيَّةِ وَالعَاطِفِيَّةِ، وَقَدْ يَصِلُ الأَمْرُ إِلَى تَمَنِّي أَنْ يُصَابَ أَخُوه بِأَيِّ مَكْرُوهٍ حَتَّى يَحْتَلَّ مَكَانَهُ وَيَحْظَى بِاهْتِمَامِ وَالِدَيْهِ.

- وَكَذَلِكَ فَلا شَكَّ أَنَّ الْمُفَضَّلَ يُعَـانِي هُـوَ الآخَـرُ مِـنْ نَظْـرَةِ إِخْوَانِهِ العَدَائِيَّـةِ وَالكُـرْهِ الْمُـمَارَسِ ضِـدّهُ عَـلَى مُسْـتَوى السُّـلُوكِ اليَوْمِيِّ، إِنْ لَمْ تَتَطَوَّرْ إِلَى مُسْتَوَى إِلْحَاقِ الضَّرَرِ بِـالتَّجْرِيحِ وَالهَجْـرِ وَالضَّرْبِ فِي بَعْضِ الحَـالاتِ، فَتَصِـلُ بِـذَلِكَ الأُسْرَةُ إِلَى حَالَـةٍ لا تُحْسَدُ عَلَيْهَا، لِيَكُونَ الوَلَدُ الْمُفَضَّلُ وَالْمُفَضَّلُ عَلَيْهِ وَالوَالِدَانِ أَيْضاً فِي صِرَاعٍ دَائِمٍ يَتَعَكَّرُ مَعَهُ صَفْوُ الحَيَاةِ، وَيَتَهَدَّدُ أَمْنُهَا وَاسْتِقْرَارُهَا.

أَمَّا عِنْدَمَا يَنْشَأُ الأَوْلادُ فِي جَوٍّ مِنَ العَدْلِ وَالْمُسَـاوَاةِ فِـيمَا بَـيْنِ بَعْضِهِمْ البَعْضَ فَإِنَّهُمْ يَنْشَأُونَ نَشْأَةً صِحِّيَّةً نَقِيَّةً، بَعِيدَةً عَنِ الحِقْـدِ

وَالحَسَدِ وَالغَيْرَةِ.

الدروس المستفادة من القصة :

١- العَدْلُ هُوَ رُوحُ الأُسَرِ وَحَيَاتُهَا وَسَبَبُ سَعَادَتِهَا وَفَلاحِهَا.

٢- العَدْلُ لَيْسَ بِالأُمُورِ المَادِّيَّةِ فَحَسْبُ بَلْ بِالعَطْفِ وَالحَنَانِ، والمَحَبَّةِ وَالمَوَدَّةِ.

٣- العَـدْلُ أَنْ تُعْطِـي كُـلَّ وَاحِـدٍ مِـنْهُمْ حَسْـبَ احْتِيَاجَاتِـهِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِ الْمُنَاسِبَةِ لَهُ.

٤- العَدْلُ حَقٌّ مَكْفُـولٌ لِـلأَوْلادِ كَـمَا أَنَّ الـبِرَّ حَـقٌّ مَكْفُـولٌ لِلآبَاءِ.

٥- لا تُحَمِّـلْ نَفْسَـكَ وِزْراً زَائِـداً بِمَنْـعِ بَعْـضِ أَوْلادِكَ مِـنْ مِيرَاثِكَ بَعْدَ مَمَاتِكَ.

٦- آثَارُ الظُّلْمِ تَرْتَدُّ عَلَى الآبَاءِ بِالعُقُوقِ وَعَدَمِ البِرِّ.



[٥]

تَأدِيبٌ عَمَليٌّ

تَأْدِيبٌ عَمَلِيٌّ

بَعَثَ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ القَاسِمِ ذَاتَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ نِصْفُهُ، قَالَ: فَوَافَيْتُهُ وَأَنَا مِنْهُ خَائِفٌ مَذْعُورٌ. وَدَخَلَ الحَاجِبُ بَيْنَ يَدَيَّ وَأَنَا فِي أَثَرِهِ، حَتَّى أَدْخَلَنِي إِلَى بَيْتٍ مُظْلِمٍ، فَقَالَ لِي: سَلِّم عَلَى الأَمِيرِ! فَسَلَّمْتُ. فَقَالَ لِي ابْنُ طُولُونَ مِنْ دَاخِلِ البَيْتِ وَهُوَ فِي الظَّلام: لأَيِّ شَيْءٍ يَصْلُحُ هَذَا البَيْتُ؟ قُلْتُ: لِلْفِكْرِ. قَالَ: وَلِمَ؟ قُلْتُ: لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَشْغَلُ الطَّرْفَ بِالنَّظَرِ فِيهِ. قَالَ: أَحْسَنْتَ! امْضِ إِلَى ابْنِي العَبَّاسِ، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ الأَمِيرُ اغْدُ عَلَيَّ. وَامْنَعْهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ إِلَى أَنْ يَجِيئَنِي فَيَأْكُلَ مَعِي. فَقُلْتُ: السَّمْعُ والطَّاعَةُ. وانْصَرَفْتُ، وَفَعَلْتُ مَا أَمَرَنِي بِهِ، وَمَنَعْتُهُ مِنَ أَنْ يَأْكُلَ شَيْئاً.

وَأَطَالَ ابْنُ طُولُونَ عَمْداً، حَتَّى عَلِمَ أَنَّ العَبَّاسَ قَدْ اشْتَدَّ جُوعُهُ وَأُحْضِرَتْ مَائِدَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا إِلا البَوَارِدُ مِنَ البُقُولِ المَطْبُوخَةِ، فَانْهَمَكَ العَبَّاسُ فِي أَكْلِهَا لِشِدَّةِ جُوعِهِ، حَتَّى شَبِعَ مِنَ ذَلِكَ الطَّعَامِ، وَأَبُوهُ مُتَوَقِّفٌ عَنِ الانْبِسَاطِ فِي الأَكْلِ. فَلَمَّا عَلِمَ بِأَنَّهُ قَدْ امْتَلأَ مِنْ ذَلِكَ الطَّعَامِ، أَمَرَهُمْ بِنَقْلِ المَائِدَةِ وَأَحْضَرَ كُلَّ

لَوْنٍ طَيِّبٍ مِنَ الدَّجَاجِ وَالبَطِّ وَالجَدْيِ والخَرُوفِ فَانْبَسَطَ أَبُوهُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ فَأَكَلَ وَأَقْبَلَ يَضَعُ بَيْنَ يَدَيْ ابْنِهِ مِنْهُ، فَلا يُمْكِنُهُ الأَكْلُ لِشِبَعِهِ. قَالَ لَهُ أَبُوهُ: إِنَّنِي أَرَدْتُ تَأْدِيبَكَ فِي يَوْمِكَ هَذَا بِمَا امْتَحَنْتُكَ بِهِ. لا تُلْقِ بِهِمَّتِكَ عَلَى صِغَارِ الأُمُورِ بِأَنْ تُسَهِّلَ عَلَى نَفْسِكَ تَنَاوُلَ يَسِيرِهَا فَيَمْنَعُكَ ذَلِكَ مِنْ كِبَارِهَا، وَلا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا يَقِلُّ قَدْرُهُ فَلا يَكُونُ فِيكَ فَضْلٌ لِمَا يَعْظُمُ قَدْرُهُ.

أَيُّهَا الآبَاءُ:

إِنَّ تَرْبِيَتَكُمْ لأَبْنَائِكُمْ إِنَّمَا هِيَ كَالْبُنْيَانِ المَرْصُوصِ لا بُدَّ أَنْ تَهْتَمَّ بِكُلِّ جَوَانِبِهِ، وَجَمِيعِ أَطْرَافِهِ حَتَّى تَرَاهُ مُكْتَمِلاً قَوِياً جَمِيلاً ؛ فَلِذَا عَلَيْكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِأُمُورِ أَبْنَائِكَ كُلِّهَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَدَوَاءٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَعْلِيمٍ وَتَثْقِيفٍ، فَكَمَا أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالدَّوَاءَ هِيَ قُوتُ الجَسَدِ فَاعْلَمْ أَنَّ التَّأْدِيبَ وَالتَّعْلِيمَ وَالتَّثْقِيفَ وَالتَّرْبِيَةَ عَلَى الأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ هِيَ قُوتُ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ. وَكَمَا قِيلَ :

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

التَّرْبِيَةُ تَنْظِيرٌ وَتَطْبِيقٌ :

أَيُّهَا الآبَاءُ الكِرَامُ:

إِنَّ إِلْقَاءَ الأُمُورِ وَالنَّوَاهِي لَيْسَ هُوَ التَّرْبِيَةَ كُلَّهَا وَلَيْسَ هُوَ

التَّرْبِيَةَ الْمُثْلَى إِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى تَدْعِيمٍ وَتَأْكِيدٍ بِأَشْيَاءَ تَطْبِيقِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ يَتَعَرَّفُ الابْنُ مِنْ خِلالِهَا عَلَى جَوَانِبَ الخَيْرِ والشَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ فِي كُلِّ مَا يُؤْمَرُ بِهِ أو يُنْهَى عَنْهُ . وَإِنَّ ابْنَ طُولُونَ قَدْ طَبَّقَ التَّرْبِيَةَ العَمَلِيَّةَ فِي تَرْبِيَتِهِ لابْنِهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ تَجْرِبَتِهِ وَقِصَّتِهِ هَذِهِ فِي تَرْبِيَتِنَا لأَوْلادِنَا وَفَلَذَاتِ أَكْبَادِنَا.

سَلِّمْ الزِّمَامَ لِمُعَلِّمِ ابْنِكَ :

إِنَّ مِنْ العِبَرِ الَّتِي نَسْتَفِيدُهَا مِنْ هَـذِهِ الحِكَايَـةِ أَوَّلاً أَنْ يَكُـونَ لِمُعَلِّمِ ابْنِكِ وَمُؤَدِّبِهِ سُلْطَةُ التَّأْدِيبِ، والأَمْرُ والنَّهْيُ لِكَـيْ يَـتَمَكَّنَ مِنْ أَدَاءِ مُهَمَّتِهِ، فَابْنُ طُولُونَ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ القَاسِمِ: امْنَعْـهُ مِـنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَى أَنْ يَجِيئَنِي فَيَأْكُلَ مَعِي.

اخْتَرْ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ الْمُنَاسِبَيْنِ :

وَأَيْضاً نَسْتَفِيدُ أَنَّ التَّفْكِيرَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ جَوٍّ مُلائِمٍ بَعِيدٍ عَنْ كُلِّ مَا يَشْغَلُ الذِّهْنَ وَالفِكْرَ فَلا يُمْكِنُ لامْرِئٍ أَنْ يُفَكِّـرَ فِي بَيْـتٍ فِيـهِ مُلْهِيَاتٌ وَمُشْغِلاتٌ مِنْ تِلْفَازٍ وَكُمْبيُوتَرٍ وَأَلْعَابٍ وَمُسَـلِّيَاتٍ، بَـلْ لا بُدَّ مِنْ غُرْفَةٍ لَـيْسَ فِيهَـا أَيُّ زَخْرَفَـةٍ أَوْ أَلْـوَانٍ أَوْ أَيُّ نَـوْعٍ مِـنْ الأَشْيَاءِ الْمُشْغِلَةِ لِلْفِكْرِ وَالطَّرْفِ.

وَلِذَا لَـمَّا وُسِّعَ المَسْجِدُ النَّبَوِيُّ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ قَـالَ:

إِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فَتُشْغِلَ النَّاسَ عَنْ صَلاتِهِمْ .

وَمِـنْ ذَلِـكَ نَسْـتَفِيدُ أَنَّ الأَبَ يَنْبَغِـي عَلَيْـهِ أَلا يُلْقِـي أَوَامِـرَهُ وَنَوَاهِيهِ وَنَصَائِحَهُ لأَبْنَائِهِ أَثْنَاءَ لَعِبِهِمْ وَوَقْتِ لَهْوِهِمْ ؛ فَإِنَّ فِكْرَهُمْ لا يَكُونُ مُسْتَعِداً لاسْتِقْبَالِ ذَلِكَ لانْشِغَالِهِ بِمَا هُـوَ أَهَـمُّ عِنْـدَهُمْ؛ فَلِذَا لا بُدَّ مِنْ تَهْيِئَةِ الجَوِّ الملائِمِ وَاخْتِيَارِ الوَقْتِ الْمُنَاسِبِ للنَّصَائِحِ والمَوَاعِظِ.

لِيُخْطِئْ مَا يُرِيدُ فَبِذَلِكَ يَسْتَفِيدُ :

أَمَّا الدَّرْسُ العَمَلِيُّ التَّأْدِيبِيُّ الَّذِي قَامَ بِهِ ابْنُ طُولُـونَ مَـعَ ابْنِـهِ فَقَدَ كَانَتْ فِيهِ النَّصِيحَةُ سَامِيَةً وَرَاقِيَةً، وَالنَّتِيجَةُ فِيهِ رَائِعَةً وَعَالِيَةً، فَقَدْ أَطَالَ عَلَيْهِ فِي المَجْلِسِ حَتَّى جَاعَ، ثُمَّ أَتَى لَهُ بِأَنْوَاعٍ عَادِيَّةٍ مِـنَ الطَّعَامِ فَانْهَمَكَ فِيهَا وَمَلأَ مَعِدَتَهُ مِنْهَا، وَلَمْ يُكَلِّمْهُ أَبَـداً بَـلْ تَرَكَـهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، ثُمَّ أَحْضَرَ لَهْ الطَّيِّبَاتِ مِنْ كُلِّ مَـا لَـذَّ وَطَـابَ فَلَـمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَأْكُلَ شَيْئاً، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ الرِّسَالَةَ السَّامِيَةَ الَّتِي يُرِيدُ إِيصَالَهَا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ المَوْقِفِ وَمِنْ تِلْكَ العَمَلِيَّةِ التَّأْدِيبِيَّةِ فَقَالَ لَهُ :

لا تُلْقِ بِهِمَّتِـكَ عَلَى صِـغَارِ الأُمُـورِ بِـأَنْ تُسَـهِّلَ عَـلَى نَفْسَـكَ تَنَاوُلَ يَسَيرِهَا فَيَمْنَعَكَ ذَلِكَ مَنْ كِـبَارِهَا، وَلا تَشْـغَلْ نَفْسَـكَ بِـمَا يَقِلُّ قَدْرُهُ فَلا يَكُونُ فِيكَ فَضْلٌ لِمَا يَعْظُمُ قَدْرُهُ.

أَيُّهَا الآبَاءُ:

وَهَكَذَا أَنْتُمْ لا تَشْغَلُوا أَبْنَاءَكُمْ بِمَا يَقِلُّ قَدْرُهُ مِنْ اهْتِمَامٍ بِأَفْلامٍ وَمُسَلْسَلاتٍ وَمُبَارَيَاتٍ وَحَفَلاتٍ وَسَهَرَاتٍ فَلا يَكُونُ فِيهِمْ فَضْلٌ لأَنْ يَشْغَلُوا أَنْفُسَهُمْ بِعَظَائِمَ الأُمُورِ مِنْ العِلْمِ والفِكْرِ والكِتَابَةِ والاخْتِرَاعِ والإِبْدَاعِ.

بَلْ وَجِّهُوهُمْ لِكُلِّ عَظِيمٍ، وَأَدِّبُوهُمْ بِكُلِّ أَمْرٍ جَلِيلٍ، عَلِّمُوهُمْ أَنَّ هِمَّتَهُمْ يَجِبُ أَنْ تَتَخَطَّى كُلَّ الصِّعَابِ، وَأَنْ تَتَجَاوَزَ كُلَّ الْمُلْهِيَاتِ مِمَّا لَذَّ وطَابَ، فَبِذَلِكَ تَعْلو هِمَمُهُمْ، وَتَسْمُو نُفُوسُهُمْ، وَيَسْمُو قَدْرُهُمْ.

لا أَقُولُ: امْنَعُوهُمْ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ، لا أَقُولُ: احْرِمُوهُمْ مِنَ الْمُسَلِّيَاتِ وَالْمُلْهِيَاتِ، لَكِنْ أَقُولُ: عَلِّمُوهُمْ اللَّعِبَ الهَادِفَ، وَاللَّهْوَ الْمُفِيدَ، عَلِّمُوهُمْ السِّبَاحَةَ وَالرِّمَايَةَ وَرُكُوبَ الخَيْلِ، عَلِّمُوهُمْ الأَلْعَابَ الَّتِي تُزِيدُ تَرْكِيزَهُمْ، وَتُنَمِّي مَوَاهِبَهُمْ، وَتُعْلِي هِمَمَهُمْ .

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الشَّبَابُ:

لِتَكُنْ هِمَّتُكُمْ عَالِيَةً عُلُوَّ النُّجُومِ وَلَا يَكُنْ اهْتِمَامُكُمْ بِسَفَاسِفِ الأُمُورِ وَصِغَارِهَا، وَإِنَّمَا كُونُوا كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

هِمَّتِي هِمَّةُ الْمُلُوكِ ... وَنَفْسِي تَرَى الْمَذَلَّةَ كُفْرَا

إِنَّ نُفُوسَكُمْ الْمُؤْمِنَةَ يَجِبُ أَلا تَقِفَ دَونَ الله وَلا تَتَعَوَّضَ عَنْهُ بِشَيْءٍ سِوَاهُ، وَلا تَرْضَى بِغَيْرِهِ بَدَلاً مِنْهُ، وَلا تَبِيعُ حَظَّهَا مِنَ الله وَقُرْبِهِ وَالأُنْسِ بِهِ وَالفَرَحِ وَالسُّرُورِ وَالابْتِهَاجِ بِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الحُظُوظِ الخَسِيسَةِ الفَانِيَةِ .

أَيُّهَا الشَّبَابُ :

ارْتَفِعُوا بِهِمَمِكُمْ عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَوَضِيعٍ، وَلا تَكُنْ هِمَّتُكُمْ مُجَرَّدَ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ شَهْوَةٍ وَلا تَكُونُوا عَبِيدًا لِذَلِكَ فَمَا فِي ذَلِكَ إِلا التَّعَاسَةُ وَالخُسْرَانُ قَالَ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»[1] .

فَبِالْهِمَمِ تُعْرَفُ الْمَقَادِيرُ وَكَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ ... وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا ... وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

الدروس المستفادة من القصة:

١- التَّرْبِيَةُ تَعْلِيمٌ وَتَطْبِيقٌ.

٢- الفِكْرُ والتَّعْلِيمُ يَحْتَاجُ إِلَى مَكَانٍ لائِقٍ، وَزَمَانٍ مُنَاسِبٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦). **والقطيفة** : كساء له خمل. **والخميصة** : ثوب خز أو صوف مُعلم. النهاية (٢/ ٨١)، (٤/ ٨٤).

٣- أَعْطُوا لِلْمُعَلِّم صَلاحِيَّاتِ الأَمْرِ وَالنَّهْي لِيَسْتَفِيدَ أَبْنَاؤُكُمْ.

٤- دَعُوا الأَبْنَاءَ يُخْطِئُوا وَيَتَعَلَّمُوا مِنْ أَخْطَائِهِمْ.

٥- إِنْ لَمْ تَنْشَغِلْ النَّفْسُ بِالعَظَائِمِ انْشَغَلَتْ بِالسَّفَاسِفِ.

٦- قَدْرُ الإِنْسَانِ يَتَعَلَّقُ بِمِقْدَارِ هِمَّتِهِ، إِنْ عَلَتْ فَعَالٍ، وَإِنْ سَفَلَتْ فَسَافِلٌ وَنَازِلٌ.



[٦]

حَلاوَةُ الآبَاءِ

حلاوةُ الآباءِ

دَخَلَ شَابٌّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى المَنْصُورِ فَسَأَلَهُ عَـنْ وَفَـاةِ أَبِيـهِ قَالَ: مَرِضَ أَبِي- رضي الله تعالى عَنْهُ- يَوْمَ كَـذَا، وَمَـاتَ- رضي الله تعالى عنه-يَوْمَ كَذَا، وَتَرَكَ- رضي الله تعالى عنه- مِنَ المَالِ كَذَا وَمِنَ الوَلَدِ كَذَا، فَانْتَهَرَهُ الرَّبِيعُ وَقَالَ : بَيْنَ يَدَي أَمْيرِ المُؤْمِنِينَ تُوَالِي بِالدُّعَاءِ لأَبِيكَ. فَقَالَ الشَّابُّ: لا أَلُومُكَ لأَنَّـكَ لَمْ تَعْـرِفْ حَـلاوَةَ الآبَاءِ قَالَ: فَمَا عَلِمْنَا أَنَّ المَنْصُورَ ضَحِكَ فِي مَجْلِسِهِ ضَحِكاً قَطّ افتر عَنْ نَوَاجِذِهِ إِلا يَوْمِئذٍ[1].

إِنَّ للآباءِ حلاوة :

إِنَّ وُجُـودَ الأَبِ فِي حَيَـاةِ أَبْنَائِـهِ يُضْـفِي جَمَـالاً وَرَوْنَقـاً، فَالأَب يَكْلأُ أَبْنَاءَهُ بِالمَحَبَّةِ وَالحَنَانِ والشَّفَقَةِ، الأَبُ يُمَثِّـلُ لأَبْنَائِـهِ الدِّرْعَ الوَاقِي وَالسِّيَاجَ المَنِيعَ الَّذِي يَحْتَمُونَ بِهِ وَيأْمَنون وَرَاءَهُ.

إِنَّ تَضْحِيَةَ الأَبِ لأَبْنَائِهِ تَضْحِيَةٌ عَظِيمَةٌ؛ فَـتَرَى الأَبَ يَشْـقَى وَيَتْعَبُ، وَرُبَّمَا يَتَأَلَّمُ كَثِيراً وَلَكِنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى آلامِهِ مِنْ أَجْـلِ إِيصَـالِ لُقْمَةٍ هَنِيئَةٍ إِلَى فَمِ أَوْلادِهِ.

---

(١) عيون الأخبار، لابن قتيبة (١/ ١٦٠).

تَرَى الأَب يَبْحَثُ عَنِ العَمَلِ وَإِنْ كَانَ هَـذَا العَمَـلُ مُجْهِـداً أَوْ شَاقاً مِنْ أَجْلِ أَنْ يُلَبِّيَ طَلَبَاتِ أَوْلادِهِ وَأَسْرَتِهِ.

إِنَّكَ لَتَلْقَى الأَبَ يُؤْثِرُ بِاللُّقْمَةِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ أَبْنَائِهِ، إِنَّهُ مَا إِنْ يَرَى مَرَضـاً فِي أَحَـدِ أَبْنَائِـهِ إِلا وَتَـرَاهُ يَـدُورُ بِـهِ عَـلَى الأَطِبَّـاءِ وَيَبْحَثُ لابْنِهِ عَنْ دَوَاءٍ، وَيَبْذُلُ الغَالِي والنَّفِيسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَـرَى ابْنَهُ سَلِيماً مُعَافَى.

تَرَى الأَبَ مَعَ كُلِّ تَعَبِهِ وَشَقَائِهِ، تَـرَى الأَبَ مَـعَ كُـلِّ هُمُومِـهِ وغُمُومِهِ، يَنْسَى كُلَّ ذَلِكَ عِنْدَمَا يَسْمَعُ كَلِمَـةَ «أَبِي» وَهِـيَ تَخْـرُجُ كَاللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ مِنْ فَمِ ابْنِهِ لِتَنْزِلَ كَقَطْرِ النَّدَى عَلَى سَـمْعِهِ وَقَلْبِـهِ وَفُؤَادِهِ.

إِنَّهُ يَنْسَى كُلَّ الدُّنْيَا عِنْـدَمَا يلْعَـبُ مَـعَ أَبْنَائِـهِ فَـيَرَى وَيَسْـمَعُ وَيَلْمَسُ ضَحِكَاتِهِمْ وَصَرَخَاتِهِمْ، فَتَرَى الدُّنْيَا كلهـا لاَ تَسَـعُهُ مِـنْ الفَرَحِ عِنْدَمَا يَأْتِيهِ ابْنُهُ فَيَقُولُ: أَبِي لَقَدْ نَجَحْتُ وَتَفَوَّقْتُ.. أَبِي لَقَدْ أَخَذْتُ شَهَادَةَ المُتَوَسِّطِ.. أَبِي نِلْتُ امْتِيَازاً فِي شَـهَادَةِ الثَّانَوِيَّـةِ، أَبِي لَقْـدَ تَخَرَّجْـتُ مِـنْ الجَامِعَـةِ.. أَبِي .. أَبِي .. أَبِي فَيَفْـرَحُ وَيَفْـرَحُ وَيَفْرَحُ.. تَرَى مَعِيناً غَزِيراً مِنْ الفَرَحِ والسُّرُـورِ، تَـرَى سَـيْلاً مِـنْ الفَخْرِ والاعْتِزَازِ بِابْنِهِ الَّذِي رَبَّاهُ وَعَلَّمَـهُ وَأَدَّبَـهُ . وَعِنْـدَمَا يَكْـبُرُ

الأَبُ وَيَشِيبُ يَفْرَحُ بِأَبْنَاءِ أَبْنَائِهِ وَيَسْعَدُ لِسَعَادَةِ أَبْنَائِهِ بِهِمْ وَفَرَحِهِمْ بِهِمْ .

تَرَاهُ فِي كِبَرِهِ ظِلاً ظَلِيلاً وَارِفاً مِنَ الأَمْنِ وَالإِرْشَادِ وَالنُّصْحِ والتَّعلِيم لأَبْنَائِهِ لِيُوَجِّهَهُمْ إِلَى كُلِّ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ لِيَبْلُغُوا كُلَّ مَا هُوَ نَافِعٌ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وآخِرتِهِمْ.

لا تدعْ الفرْصَةَ تفوتكَ :

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

أَقُولُ لِكُلِّ مَنْ عِنْدَهُ أَبٌ: لا تُضَيِّعْ أَيَّامَ الأَمَانِ، لا تُفَوِّتْ أَيَّامَ الحَنَانِ، اقْتَرِبْ مِنْ أَبِيكَ وَتَعَلَّمْ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ فتَتَمَنَّى حِينَهَا لَوْ عَادَ يَضْرِبُكَ، لَوْ عَادَ لِيَقْسُو عَلَيْكَ، فَلِذَا اعْرَفْ حَقَّ هَذِهِ النَّفْحَةِ الطَّيِّبَةِ وَاقْدُرْهَا حَقَّ قَدْرِهَا؛ فَالأَبُ هِبَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَفْحَةٌ جَلِيلَةٌ مِنَ اللهِ ـ تَعَالَى ـ يَتَحَسَّرُ عَلَيْهَا اليَتَامَى وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ أَنَّ لَهُمْ الدُّنْيَا فَتُؤْخَذُ مِنْهُمْ وَيَكُونَ لَهُمَ أَبٌ يَحْتَمُونَ بِظِلِّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ.

وَعِنْدَمَا يَأْتِيهِ الأَجَلُ وَيَنْزِلُ بِهِ المَوْتُ عِنْدَهَا سَيُحِسُّ الأَبْنَاءُ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ قَدْ فُقِدَ، سَيَشْعُرُونَ أَنَّ الحَيَاةَ قَدْ نَقَصَ شَيْءٌ أَسَاسِيٌّ مِنْهَا عِنْدَهُمْ، يَرَوْنَ المَالَ وَيُشَاهِدُونَ الدُّنْيَا وَيَعِيشُونَ الحَيَاةَ لَكِنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنَّ هُنَاكَ طَعْماً حُلْواً قَدْ فُقِدَ مِنْهُمْ عِنْدَمَا مَاتَ

والِدُهُمْ، فَعِنْدَهَا سَيُحِسُّونَ «حَلاوَةَ الأَبِ» الَّتِي كَانُوا يَعِيشُونَهَا سَيَذْكُرُونَ الذِّكْرَيَاتِ الجَمِيلَةَ، والكَلِمَاتِ الرَّقِيقَةَ، والابْتِسَامَاتِ اللَّطِيفَةَ مِنْ أَبِيهِمْ الَّذِي بَذَلَ كُلَّ حَيَاتِهِ مِنْ أَجْلِ إِسْعَادِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ. وَلِهَذَا السَّبَبِ سُمِّيَ اليَتِيمُ يَتِيماً لأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ حَلاوَةَ أَبِيهِ، لَمْ يَعِشْ السَّعَادَةَ مَعَ أَبِيهِ، وَلَمْ يَرَ اليَدَ الحَانِيَةَ الَّتِي تَضُمُّهُ وَتَحْتَوِيهِ. فَلِذَا هُوَ يَسْتَحِقُّ الشَّفَقَةَ مِنْ كُلِّ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يُعَوِّضُونَهُ شَيْئاً يَسِيراً مِمَّا فَقَدَهُ مِنْ حَلاوَةِ الأَبِ.

الأبُ هُوَ ربُّ الأسْرَةِ :

إِنَّ لِلأَبِ تَأْثِيراً كَبِيراً فِي جَمِيعِ مَنَاحِي أَوْلادِهِ وَأُسْرَتِهِ اقْتِصَادِياً واجْتِمَاعِياً وَنَفْسِياً وَرُوحِياً كَذَلِكَ، فَهْوَ يَلْعَبُ دَوْراً رَئِيسِياً فِي تَمَاسُكِ الأُسْرَةِ واسْتِمْرَارِهَا فَلِذا يُسَمَّى الأَب «رَبُّ الأُسْرَةِ»، أَيْ يُرَبِّيهَا وَيَحْمِيهَا وَيُنَمِّيهَا وَيَحْفَظُهَا.

أيها الآباء:

إِنَّ هَذَا مِثَالٌ حَيٌّ عَلَى مَا يَعْتَلِجُ فِي نُفُوسِ الأَبْنَاءِ مِنْ حُبٍّ غَامِرٍ لآبَائِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ سُوءِ حَظِّ الكَثِيرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ هَذَا الزَّمَنِ بِالتَّحْدِيدِ، أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَجَالٌ للتَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الحُبِّ، فَالْكُلُّ مَشْغُولٌ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي.

حَتَّى بَلَغَ مِنِ انْشِغَالِ الأَبَـوَيْنِ بِـأَعْمَالِهِمَا أَنَّهُـمَا لَمْ يَعُـودَا يَجِـدَانِ الفُرْصَةَ المُنَاسِبَةَ للتَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الحُبِّ المُتَبَادَلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَبْنَائِهِمْ، ظَنَاً مِنْ الأَبَوَيْنِ أَنَّ التَّرْجَمَـةَ الحَقِيقِيَّـةَ لِلْعَوَاطِـفِ الأَبَوِيَّـةِ هِـيَ فِي المَزِيدِ مِنَ الانْشِغَالِ، وَالمَزِيدِ مِنْ الانْهِمَاكِ وَرَاءَ الأَعْمَالِ.

إِنَّنَا نَخْشَى على تلك المَشَاعِرِ الغَضَّةِ مِـنْ الانْطِفَـاءِ فِي أَجْـوَاءِ مَشْحُونَةٍ بِالانْهِمَاكِ الزَّائِدِ وَرَاءَ الأَعْمَالِ الَّتِـي اسْـتَوْلَتْ عَـلَى كُـلِّ الأَوْقَاتِ، دوُنَ أَنْ نَعِيَ أَنَّ ذَلِكَ لا يَصِحُّ ولا يَنْبَغِي، فَإِنَّ الإِفْرَاطَ فِي الانْهِمَاكِ بِأَدَاءِ الأَعْبَاءِ الوَظِيفِيَّةِ مَذْمُومٌ، شَأْنُهُ شَأْنَ التَّفْرِيطِ.

إِنَّهَا كَارِثَةٌ بِكُلِّ مَا فِي الكَلِمَةِ مِنْ مَعْنًى، وَمُصِيبَةٌ رُبَّمَا لا نَشْـعُرُ بِقَدْرِهَا وَضَرَرِهَا إلا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ. وَرُبَّمَا يَصْـعُبُ أَوْ يَسْـتَحِيلُ تَدَارُكُ آثَارِها عَلَى الأَبْنَاءِ أَبَداً.. تِلْكَ الكَارِثَةُ هِيَ إِهْمَالُ الأَبْنَـاءِ فِي الصِّغَرِ والانْشِغَالُ عَنْهُمْ وَالتَّقْصِيرُ فِي احْتِضَانِهِمْ والقُـرْبِ مِـنْهُمْ وَنَقْلِ الشُّعُورِ بِدِفْءِ العَلاَقَةِ مَعَهُمْ.

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الجَفْوَةُ بَيْنَ الآبَاءِ والأَبْنَاءِ سَبَباً رَئِيساً فِي ضَـيَاعِ مُسْتَقْبَلِ الكَثِيرِ مِنْ الشَّبَابِ، وانْهِيَارِ مَشْرُوعِ رَجُلٍ مُحْتَرَمٍ وَإِنْسَـانٍ لَهُ قِيمَةٌ، وَتَحَوَّلَ ذَلِكَ إِلَى مَشْـرُوعِ شَـابٍّ مُجْرِمٍ أو إِنْسَـانٍ فَاشِـلٍ بِمَعْنَى الكَلِمَةِ.

إِنَّ مَعْنَى انْشِغَالِ الأَبَوَيْنِ عَنْ أَوْلادِهِمَا وانْهِمَاكِهِـمَا فِي حَيَـاتِهِمَا الخَاصَّةِ وَقَطْعِ الصِّلَةِ بِالأَوْلادِ مَعْنَاهُ أَنْ يُفَتِّشَ الأَوْلادُ عَنْ بَـدَائِلَ أُخْـرَى يَسْـتَقُونَ مِنْهَـا التَّوْجِيـهَ وَيَسْـمَعُونَ مِنْهـا كَلِـمَاتِ المَـوَدَّةِ والتَّقْدِيرِ والثَّنَاءِ، وَفِي أَكْثَرِ الأَحْيَانِ تَكُونُ هَـذِهِ المَصَـادِرُ مُنْحِرِفَـةً لَكِنَّهَا تَبْدُو فِي صُورَةِ الصَّدِيقِ الوَدُودِ أو الصَّاحِبِ المَحْبُـوبِ مِمَّـا يَجْعَلُ الانْخِدَاعَ بِهَا سَهْلاً مَيْسُوراً وَيَكُونُ أَثَرُهَا مُؤَثِّراً مَضْمُوناً.

أَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ لآبَائِكُمْ :

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

إِنَّ الأَبَ جَوْهَرَةٌ كَبِيرَةٌ يَشِعُّ حَنَانُهَا وَيَلْمَعُ بَرِيقُهَا عَلَى أَوْلادِهِ، قَلْبُهُ مُمْتَلِئٌ دِفْئاً وَسَلاَماً وَأَمَاناً .

وَإِنَّ الأَبَ أَحْوَجُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ ابْنِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ أَنْ يَـدْعُوَ لَـهُ بِالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ مِنْ الله تَعَالَى، فَهُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ الثِّمَارِ الَّتِي يَجْنِيهَا بَعْدَ مَمَاتِهِ قَالَ ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الإنسـانُ انْقَطَـعَ عَمَلُـهُ إلاَّ مِـنْ ثَـلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

ادْعُوا لآبَائِكُمْ فِي صَلاتِكُمْ، لا تُنْسِكُمْ الـدُّنْيَا إِيَّـاهُمْ فَهُـمْ مَـا

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

كَانُوا يَنْسَوْنَكُمْ ولا يَنْشَغِلُونَ عَنْكُمْ .

الدروس المستفادة من القصة:

١ - لِلآباءِ حَلَاوَةٌ عَلَى الأَبْنَاءِ فَعَلَيْهِمُ أَلاَّ يُضَيِّعُوهَا .

٢ - الأَبُ هُــوَ رَبُّ الأُسْرَةِ والآخِــذُ بِزِمَامِهَــا لِــبَرِّ الأَمَــانِ والاطْمِئْنَانِ.

٣- الانْشِغَالُ عَنَ الأَبْنَاءِ يَجْعَلُهُمْ لا يَحُسُّونَ بِحَلاوَةِ آبائِهِمْ .

٤ - مِنْ بِرِّ الأَبْنَاءِ بِآبائِهِمْ الدُّعَاءُ لَهُمُ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ .

[٧]

قَبِّلُوهُمْ قُبْلَةَ الحُبِّ

قَبِّلُوهُمْ قُبْلَةَ الحُبِّ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَبَّلَ رَسُولُ الله الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيِّ جَالِساً فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنْ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ**»(١).

لتكنْ تربيتنا للرُوح والنفْس :

إِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تُعْطِينَا دَرْساً عَظِيماً وَأُنْمُوذَجاً رَائِعاً فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا، فَهِيَ تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ مَسْؤُولِيَّةَ الأَهْلِ لَيْسَتْ مُقْتَصِرَةً عَلَى تَأْمِينِ طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلِبَاسٍ فَحَسْبُ، وَلَيْسَتْ مُقْتَصِرَةً عَلَى بِنَاءِ الجَسَدِ وَنُمُوِ الأَعْضَاءِ فَقَطْ، إِنَّ التَّرْبِيَةَ والتَّنْمِيةَ وَالتَّغْذِيةِ شَأْنُهَا عَظِيمٌ فَهِيَ تَكُونُ للرُّوحِ وَالنَّفْسِ كَمَا لِلْجَسَدِ وَالأَعْضَاءِ وَكَمَا قِيلَ:

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ فَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ التَّرْبِيةِ للرُّوحِ التَّرْبِيةَ بِالحُبِّ فَبِالْحُبِّ تُعْطِي مَا تُرِيدُ، وَبِالْحُبِّ تَأْخُذُ مَا تُرِيدُ، بِالْحُبِّ تُوَصِّلُ مَا تُرِيدُ لِمَنْ تُرِيدُ، وَتَصِلُ إِلَى مَا تُرِيدُ مِمَّنْ تُرِيدُ، وَبِالْحُبِّ تَزْرَعُ مَا تُرِيدُ، وَبِالْحُبِّ تَحْصُدُ وَتَجْنِي مَا تُرِيدُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨).

إِنَّ الحُبَّ عِنْدَمَا يَفُوحُ عَبَقُهُ، وَيَنْتَشِرُ أَرِيجُهُ بَيْنَ الأَبِ وَأَبْنَائِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعْتَبَرُ وَتِداً قَوِياً فِي بِنَاءِ الأُسْرَةِ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِنَا يُعْتَبَرُ الحَبُّ شَيْئاً مُهِماً وَمَطْلُوباً، فَالإِيمَانُ بِالله وَرَسُولِهِ يَتَطَلَّبُ حُباً عَمِيقاً يَسْرِي بَيْنَ جَنَبَاتِ الرُّوحِ وَالجَسَدِ، وَيَغُوصُ فِي الدَّمِ وَيَتَمَشَّى فِي الوَرِيدِ فَعِنْدَهَا يَصِلُ الإِيمَانُ إِلَى ذِرْوَتِهِ، وَيُحِسُّ المَرْءُ بِسَعَادَتِهِ. قَالَ الرسول ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

فَلِذَا لِكَيْ تُحِسَّ بِحَلاوَةِ الحَيَاةِ وَتَشْعُرَ بِطَعْمِ التَّرْبِيَةِ السَّلِيمَةِ لا بُدَّ مِنْ الحُبِّ لأَبْنَائِنَا؛ فَالْحُبُّ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ كَذَلِكَ هُوَ حَاجَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى إِشْبَاعٍ مُسْتَمِرٍ وَرِيٍّ دَائِمٍ لا يَنْقَطِعُ.

لتكنْ كلُ أمورنا بالحُبّ :

فأيها الأب:

أَنْتَ عِنْدَمَا تُعَلِّمَ بِالحُبِّ، وَتُرَبِّي بالحُبِّ، وَتُعَاقِبُ بِالحُبِّ، وَتَأْمُرُ وَتَنْهَى بِالحُبِّ فَكَأَنَّكَ تَسْقِي عُوداً ضَعِيفاً تَمُرُّ بِهِ الفُصُولُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

الأَرْبَعَـةُ بِحَرِّهَـا وَبَرْدِهَـا، وَحُلْوِهَـا وَمُرِّهَـا، بِنَسِـيمِهَا العَلِيـلِ وَعَوَاصِفِهَا الهَوْجَاءِ المرْعِبَةِ، وَلا تَزَالُ أَنْـتَ بِحُبِّـكَ لِوَلَـدِكَ تَقَـوِّي بُذُورَ هَذَا العُودِ الضَّعِيفِ، وَتُفْرِغُ عَلَيْهِ مِـنْ دَلْـوِ حُبِّـكَ وَحَنَانِـكَ حَتَّى تَراهُ شَجَرَةً مُثْمِرَةً، تَقِفُ بِنَفْسِـهَا وَسَـاقِهَا أَمَـامَ كُـلِّ الرِّيَـاحِ والأَعَاصِيرِ.

وَإِنَّ الحُبَّ لَيْسَ عَاطِفَةً جَيَّاشَةً تَجِيشُ فِي القُلُـوبِ وَالصُّـدُورِ فَحَسْبُ، بَلْ لا بُدَّ لَهَا مِنْ دَلائِلَ تَدُلُّ عَلَيْهَا، وَآثَارٍ تُوحِي بِهَا. فَـلا بُدَّ مِنْ كَلِمَاتِ حُبٍّ نَقُولُهَا لأَبْنَائِنَا كَمَا كَـانَ النَّبِـيُّ ﷺ يَقُـولُ عَـنِ الحَسَنِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأُحِبَّهُ**»[1]. فَـلا بُـدَّ مِـنْ ابْتِسَـامَةِ حُـبٍّ وَضَحِكَةِ حُبٍّ وَلَـمْسَةِ حُبٍّ وَقُبْلَةِ حُبٍّ فَكُلُّ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ فِي قَلْبِ الأَبِ لأَبْنَائِهِ.

وَهَذَا مَا عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الَّذِي كَانَ لَهُ عَشَرَةٌ مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلَ مِنْهُمْ أَحداً وَالَّذِي اسْتَغْرَبَ مِنْ فِعْـلِ النَّبِـيِّ ﷺ مِنْ تَقْبِيلِ حَفِيدِهِ وَابْنِ ابْنَتِهِ فَعَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ التَّقْبِيلَ رَحْمَـةٌ مِـنَ الله- عَزَّ وَجَلَّ- وَأَنَّ مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُـرْحَمُ، وَبَـيَّنَ لَـهُ فِي رِوَايَـةٍ أُخْرَى أَنَّ العُذْرَ هُوَ فِيهِ لأَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رَحْمَةٌ لأَبْنَائِهِ وَفَلذةِ كَبِدِهِ

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢١).

فَقَالَ لَهُ: «**أَوَ أَمْلِكُ إِنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ**»[1].

التَّرْبِيَةُ بِالْحُبِّ مِنْ مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ:

أَيُّهَا الآبَاءُ:

لِنَتَعَلَّمْ كَيْفَ كَانَ حُبُّ الأَبْنَاءِ فِي مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ :

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ خَادِمِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَـدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالعِيَالِ مِنْ رَسُولُ الله ﷺ[2]. وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْـنِ حَارِثَـةَ- رضي الله عـنهما- قَـالَ: كَـانَ رَسُـولُ الله ﷺ يَأْخُـذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ، وَكَانَ يُقْعِـدُ الحَسَـنَ عَـلَى فَخِـذِهِ الآخَـرِ ثُـمَّ يَضُمُّنَا وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا**»[3].

إِنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثَ وَغَيْرَهَا تَلْفِتُ انْتِبَاهَ المُـرَبِّينَ إِلَى الأُسْـلُوبِ الحَانِي الَّذِي كَانَ يَتَعَامَلُ بِهِ نَبِيُّ الإِسْلام ﷺ مَعَ الصِّغَارِ، وَكَيْـفَ كَانَ يُعَبِّرُ بِـالْقَوْلِ وَالْفِعْـلِ عَـنْ حُبِّـهُ الكَبِـيرِ لَهُـمْ، وَلِـذَلِكَ كَـانَ الصِّبْيَانُ يُقْبِلُـونَ عَلَيْـهِ أَيْـنَمَا ذَهَـبَ يَـدُورُونَ حَوْلَـهُ، يُلاعِبُونَـهُ وَيُلاعِبُهُمْ، وَيَهْتَمُّ بِشُؤُونِهِمْ بَلْ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُبْتَسِمًا حِينَ يَلْعَبُـونَ،

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٣٣٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٦).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠٣).

لأَنَّهُ- عَلَيْهِ الصلاة والسلام- يُدْرِكُ حَاجَةَ الطِّفْلِ إِلَى إِشْعَارِهِ بِأَنَّهُ شَخْصٌ مَحْبُوبٌ وَمَرْغُوبٌ بِهِ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الكِبَارِ.

أفْصِحُوا لأبْنَائِكُمْ عَنْ مَحبَّتِكُمْ لَهُمْ:

إِنَّ المَحَبَّةَ إِحْسَاسٌ وَجْدَانِيٌّ وَشُعُورٌ دَاخِلِيٌّ، وَحَقِيقَةُ هَذَا الإِحْسَاسِ تَنْبُعُ مِنْ القُدْرَةِ عَلَى نَقْلِهَا لِمَنْ نُحِبُّ، قَالَ- عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»[(١)].

هَذَا مَعَ الإِنْسَانِ الَّذِي رُبَّمَا لَيْس بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَيُّ قَرَابَةٍ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ المَحَبَّةُ لِفَلذَةِ كَبِدِكَ وَثَمَرَةِ فُؤَادِكَ.

لا يَكْفِي أَبَداً أَنْ يُحِبَّ الوَالِدُ أَبْنَاءَهُ مَحَبَّةً قَلْبِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُفْصِحَ لَهُمْ عَنْ هَذِهِ المَحَبَّةِ وَيُتَرْجِمُهَا لَهُمْ وَاقِعاً عَمَلِيًّا مِنْ خِلالِ التَّعْبِيرِ الْمُبَاشِرِ وَغَيْرِ المُبَاشِرِ مِنْ خِلالِ مُعَانَقَتِهِمْ وَمُدَاعَبَتِهِمْ وَإِمْسَاكِ أَيْدِيهِمْ وَالتَّرْبِيتِ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَمَنْ خِلالِ اللَّمْسَةِ الحَنُونَةِ وَالابْتِسَامَةِ الهَادِئَةِ وَالنَّظْرَةِ الرَّحِيمَةِ الْمُشْفِقَةِ.. فَمِنْ الْمُهِمِّ جِداً أَنْ تَصِلَ مَحَبَّةُ الوَالِدَيْنِ لأَبْنَائِهِمْ مِنْ خِلالَ كُلِّ القَنَوَاتِ الْمُتَاحَةِ: اللَّفْظِيَّةِ وَالحَرَكِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَيُمْكِنُ تَأْكِيدُ هَذِهِ المَحَبَّةِ مِنْ خِلالِ عَادَاتٍ يُعَوِّدُ عَلَيْهَا الأَبْنَاءَ دَاخِلَ الأُسْرَةِ مِثْلَ: قُبْلَةِ الصَّبَاحِ، وَقُبْلَةِ

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، وصححه الألباني.

المَسَاءِ، وَعِنْدَ العَوْدَةِ مِنْ المَدْرَسَةِ، وَالدُّعَاءِ لِلأَبْنَاءِ بِالتَّوْفِيقِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ البَيْتِ.

تقْبِيلُ الأوْلادِ مِنْ دَلائِلَ الرَّحْمَةِ:

يا أيها الآباء:

إِنَّ قُبْلَةَ الحُبِّ وَالعَطْفِ وَالحَنَانِ لأَوْلادِنَا هِيَ دَلِيلٌ مِنْ دَلائِلَ الرَّحْمَةِ فِي قُلُوبِنَا، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ هِيَ السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ- فِي التَّرْبِيَةِ النَّاجِحَةِ السَّلِيمَةِ، بَلْ فِي الدَّعْوَةِ السَّلِيمَةِ إِلَى الله- عَزَّ وَجَلَّ- أَيْضاً، أَلَمْ يَقُلْ رَبُّنَا ـ تَعَالَى ـ لِنَبِيِّهِ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[(١)]. أَلَمْ يَقُلْ أَيْضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

فَالرَّحْمَةُ لأَوْلادِنَا وَلِغَيْرِهِمْ هِيَ السِّرُّ الجَذَّابُ الَّذِي نَجْذِبُ بِهِ النَّاسَ إِلَى دِينِنَا وَأَخْلاقِنَا وَمَبَادِئِنَا وَقِيَمِنَا.

أَمَّا حِينَمَا تُفْقَدُ الرَّحْمَةُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَتَغْزُو صُدُورَنَا القَسْوَةُ وَالجَلافَةُ فَعِنْدَهَا عَلَيْنَا أَنْ لا نَشْتَكِي مِنْ سُوءِ أَخْلاقِ أَبْنَائِنَا، وَلا نَتَذَمَّرَ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِمْ، فَنَحْنُ الَّذِينَ أَبْعَدْنَاهُمْ وَأَفْسَدْنَاهُمْ بِقَسْوَتِنَا

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

وَعَدَمِ رَحْمَتِنَا وَحُبِّنَا لَهُمْ.

فَالْحُبُّ لِلأَبْنَاءِ عَاطِفَةٌ جَيَّاشَةٌ لا تُتَرْجِمُهَا الكَلِمَاتُ وَلا تَشْرَحُ مَعَانِيهَا المَعَاجِمُ والقَوَامِيسُ وَإِنَّمَا تَعْتَمِدُ عَلَى المَشَاعِرِ وَالأَحَاسِيسِ وَالقُبْلاتِ وَاللَّمَسَاتِ وَالضَّمَّاتِ والابْتِسَامَاتِ فَبِالْحُبِّ وَالتَّفَاهُمِ يَتَقَرَّبُ الآبَاءُ إِلَى أَبْنَائِهِمْ، وَيَكْسِبُونَ ثِقَتَهُمْ وَحُبَّهُمْ وَبِرَّهُمْ.

لا تهَدِّدُوهُمْ بِقَطْعِ الحُبِّ عنهُمْ :

أيها الآباء:

لا تُهَدِّدُوا أَبْنَاءَكُمْ بِإِيقَافِ الحُبِّ وَقَطْعِهِ عَنْهُمْ فَهَذَا بِمَثَابَةِ قَطْعِ شُرْيَانِ الحَيَاةِ عَنْهُمْ..!!

وَلِلأَسَفِ أَنَّهُ يَخْلُو لِكَثِيرٍ مِنْ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ أَنْ يُهَدِّدَ وَلَدَهُ هَكَذَا: «كُنْ مُؤَدَّبًا وَإِلا لَنْ أُحِبَّكَ بَعْدَ اليَوْمِ». أَوْ: «إِذَا فَعَلْتَ كَذَا لَنْ تَكُونَ حَبِيبِي».

وَلا يَتَصَوَّرُونَ وَلَا يَحُسُّونَ كَمْ تُسَبِّبُ هَذِهِ العِبَارَاتُ لِلطِّفْلِ مِنْ زَعْزَعَةِ أَمَانِهِ النَّفْسِيِّ وَسَلْبِ الطُّمَأْنِينَةِ مِنْ قَلْبِهِ، فَإِنَّ حُبَّ وَالِدَيْهِ لَهُ هُوَ أَهَمُّ مَا يَمْلُكُ، وَهُوَ سِرُّ شُعُورِهِ بِالسَّعَادَةِ وَالاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ - حَتَّى وَإِنْ كَانَ لا يُحْسِنُ أَنْ يَصُوغَ تِلْكَ المَشَاعِرَ فِي عِبَارَاتٍ مُنَسَّقَةٍ، وَكَلِمَاتٍ مُنَمَّقَةٍ، وَإِنَّ هَذَا التَّهْدِيدَ المُتَكَرِّرَ بِسَلْبِ الحُبِّ يُزْعِجُ

الطِّفْلَ وَيُثِيرُ لَدَيْهِ المَخَاوِفَ وَعَدَمَ الاطْمِئْنَانِ.

إِنَّ حَاجَةَ أَبْنَائِكُمْ إِلَى حَنَانِكُمْ وَمَحَبَّتِكُمْ أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى كَثْرَةِ الهَدَايَا وَالْمُشْتَرَيَاتِ، فَمَحَبَّتُكُمْ لَهُمْ تَزْرَعُ الطُّمَأْنِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ وَتُوَطِّدُ العَلاقَةَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَتُزِيلُ عَنْهُمْ هَوَاجِسَ الشُّعُورِ بِالكَرَاهِيَةِ وَعَدَمِ القَبُولِ، وَتِلْكَ المَحَبَّةُ الَّتِي هِيَ أَغْلَى وَأَهَمُّ عِنْدَ الطِّفْلِ مِنْ الهَدَايَا هِيَ الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَخْصِيصَ أَوْقَاتٍ لَهُ، وَالتَّحَدُّثَ مَعَهُ، وَمُرَافَقَتَهُ فِي التَّنَزُّهِ خَارِجَ المَنْزِلِ، وَمُشَارَكَتَهِ اللَّعِبَ أَحْيَانًا، وَاسْتِشَارَتَهُ فِي بَعْضِ قَضَايَا الأُسْرَةِ المُهِمَّةِ .

إِنَّ حَاجَةَ أَبْنَائِنَا لِلشُّعُورِ بِأَنَّهُمْ مَحْبُوبُونَ حَاجَةٌ مُلِحَّةٌ وَدَائِمَةٌ، فَاحْتَضِنْ أَوْلادَكَ وَقَبِّلْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ إِنَّكَ تُحِبُّهُمْ كُلَّ يَوْمٍ، فَمَهْمَا كَثُرَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَحْتَاجُونَهُ صِغَارًا كَانُوا أَوْ كِبَاراً، أَوْ حَتَّى مُتَزَوِّجِينَ وَلَدَيْكَ مِنْهُمْ أَحْفَادٌ.

الدروس المستفادة من القصة:

١- التَّرْبِيَةُ تَهْذِيبُ النُّفُوسِ والأَرْوَاحِ، لا تَغْذِيَةُ الأَجْسَادِ وَالأَشْبَاحِ.

٢- التَّرْبِيَةُ بِالْحُبِّ هِيَ التَّرْبِيَةُ الَّتِي تُؤْتِي ثِمَارَهَا .

٣- الإِفْصَاحُ عَنِ الحُبِّ مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٤- لا يَنْبَغِي لِلأَبِ التَّهْدِيدُ بِقَطْعِ الحُبِّ عَنْ أَبْنَائِهِ.

[٨]

كُونوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ

وَلَوْ عَلَى أَوْلادِكُمْ

كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَوْلادِكُمْ

يُرْوَى عَنْ شُرَيْحٍ أَنَّهُ جَاءَهُ ابْنُهُ وَقَالَ: يَا أَبَتِ، بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَدِ النَّاسِ خُصُومَةٌ، وَسَأَعْرِضُ لَكَ القَضِيَّةَ، فَإِنْ كَانَ الحَقُّ لِي فَأَخْبِرْنِي حَتَّى أُقَاضِيَهُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ: قُلْ يَا بُنَيَّ. فَأَخَذَ الابْنُ يَقُصُّ عَلَى أَبِيهِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ لَهُ: ائْتِ بِهِمْ، فَلَمَّا أَتَى بِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ حَكَمَ شُرَيْحٌ لِلْخُصُومِ عَلَى ابْنِهِ، فَلَمَّا خَرَجُوا غَضِبَ الابْنُ وَقَالَ: يا أَبَتِ، واللهِ لَوْ لَمْ أُخْبِرْكَ مِنْ قَبْلُ لَوَجَدْتُ لَكَ عُذْراً، لَكِنَّنِي أَخْبَرْتُكَ قَبْلَ أَنْ نَحْتَكِمَ إِلَيْكَ. قَالَ: يَا بُنَيَّ، وَاللهِ إِنَّكَ فِي عَيْنَيَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ جَمِيعاً، وَلَكِنَّ اللهَ- جَلَّ وَعَلا- أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْكَ.

مَسْؤُولِيَّةُ الأَبِ كَبِيرَةٌ :

إِنَّ دَوْرَ الأَبِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ دَوْرٌ عَظِيمٌ فَهُوَ مُكَلَّفٌ بِأَنْ يَبْنِي جِيلاً صَالِحاً وَيُنْشِئُ أُمَّةً قَوِيَّةً أَبِيَّةً مِنْ خِلالِ تَرْبِيَتِهِ لأَبْنَائِهِ وَتَعْلِيمِهِ لَهُمْ فَهُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يَأْخُذَ بِيَدِ أَبْنَائِهِ لِيَجْعَلَ مِنْهُمْ رِجَالاً أَصْحَابَ قِيَمٍ وَمَبَادِئَ، وَيُبْرِزُ مِنْهُمْ شَخْصِيَّاتٍ ذَاتِ غَايَاتٍ سَامِيَةٍ وَأَهْدَافٍ نَبِيلَةٍ .

وَإِنَّ غَرْسَ القِيَمِ الإِيجَابِيَّةِ لَدَى الأَبْنَاءِ بِمَثَابَةِ الشُّعَاعِ المُنِيرِ لِعُقُولِ البَشَرِ، والمُوَجِّهِ نَحْوَ طَرِيقِ الحَقِّ، وَالهَادِي لأُسْلُوبِ التَّعَامُلِ البَشَرِيِّ الرَّاقِي نَحْتَاجُهَا كِبَاراً وَصِغَاراً؛ لِنُؤَسِّسَ مِنْ خِلالِهَا مَبَادِئَ حَيَاتِنَا وَقَوَاعِدَ تَعَامُلاتِنَا، فَمِنْهَا تَتَكَوَّنُ عَادَاتُنَا وَمِنْهَا يَنْبَثِقُ اسْتِقْرَارُنَا، فَهِيَ بِلا شَكٍّ كَنْزُنَا الثَّمِينُ الَّذِي يُغَذِّي عَلاقَاتِنَا وَيَرْبِطُ بَيْنَنَا بِالحُبِّ والخَيْرِ.

عَوِّدْ بَنِيكَ عَلَى الآدَابِ فِي الصِّغَرِ	**كَيْمَا تَقِرَّ بِهِم عَيْنَاكَ فِي الْكِبَرِ**
وإِنَّمَا مَثَلُ الآدَابِ تَجْمَعُهَا فِي	**عُنْفُوَانِ الصِّبَا كَالنَّقْشِ فِي الحجَرِ**
هِيَ الْكُنُوزُ الَّتِي تَنْمُو ذَخَائِرُهَا	**وَلا يُخَافُ عَلَيْهَا حَادِث الْغِيَرِ**

التَّرْبِيَةُ تَنْظِيرٌ وَتَطْبِيقٌ :

وَإِنَّ المُلاحِظَ هُنَا لِتَصَرُّفِ شُرَيْحٍ القَاضِيِّ مَعَ ابْنِهِ لَيَتَبَيَّنُ لَهُ أَنَّ عَلَى الأَبِ أَنْ يُعْطِيَ لأَبْنَائِهِ أَمْثِلَةً وَاقِعِيَّةً عَلَى الأَخْلاقِ والمَبَادِئِ والقِيَمِ، وَأَنْ لا تَبْقَى هَذِهِ الأُمُورُ حَبِيسَةً ضِمْنَ سِيَاجِ الأُمُورِ النَّظَرِيَّةِ وَالكَلامِيَّةِ فَحَسْبَ، فَتَعْوِيدُ الآبَاءِ لأَبْنَائِهِمْ عَلَى تَبَنِّي مَوَاقِفَ العَدْلِ والعَدَالَةِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ وَمَوَاقِعِهِمْ مُنْذُ الطُّفُولَةِ مِنْ خِلالِ مَوَاقِفَ عَمَلِيَّةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ يُعْتَبَرُ أَمْراً ذَا تَأْثِيرٍ كَبِيرٍ فِي حَيَاتِهِمْ؛ لأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ رِجَالَ الغَدِ وآبَاءَ المُسْتَقْبَلِ، وَالعَدْلُ مِنْ

صِفَاتِ الله، وَبِالعْدِل يُمْكِـنُ القَضَـاءُ عَـلَى الأَحْقَـادِ والضَّـغَائِنِ والفَسَادِ، هَذَا وَعَلَى الآبَاءِ أَنْ يَعْـدِلُوا بَـيْنَ أَبْنَـائِهِمْ وَيُرَسِّـخُوا فِي نُفُوسِهِمْ الحُبَّ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ خِلالِ العَدْلِ بَيْـنَهُمْ وَتَـرْبِيتِهِمْ عَـلَى الحَقِّ والعَدْلِ فِي كُلِّ أُمُورِهِمْ وَشُؤُونِ حَيَاتِهِمْ.

لَقَدْ شَهِدَ الجَمِيعُ لِشُرَيْح بِحُبِّهِ للحَقِّ وَإِيثَارِهِ لَهُ وَلَوْ عَلَى نَفْسِه أَوْ وَلَدِهِ أو النَّاسِ أَجْمَعِينَ لا يُمَيِّزُ بَـيْنَ مَلِـكٍ وَمْمْلُـوكٍ ولا رَئِـيسٍ وَمَرْؤوسٍ، ولا بَيْنَ قَرِيبٍ أو بَعِيدٍ.

قَدْ يَأْتِي الإِشْكَالُ مِنْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الآبَاءِ يَخْلِطُونَ بَـيْنَ القَسْـوَةِ المُضِرَّةِ بِالأَبْنَاءِ، والحَزْمِ اللازِمِ لِتَرْبِيَتِهِمْ.

فَالأَطْفَالُ يَحْتَاجُونَ إِلَى الحَزْمِ؛ لأَنَّهُ يُقَدِّمُ لَهُمْ حُدُودًا يَلْتَزِمُـونَ بِهَا، وَيَقِفُونَ عِنْدَها دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا بِالضِّيق، فَـإِنْ لَمْ تُوجَـدْ هَـذِهِ الحُدُودُ سَيَسْـتَمِرُّ الطِّفْـلُ فِي تَوْسِـيعِ المَجَـالِ لِنَفْسِـهِ إِلى أَنْ يَصِـلَ لدَرَجَةِ الانْفِلاتِ ثُمَّ يَحْدُثُ ما لا يُحْمَدُ عُقْبَاهُ.

أَمَّا إِذَا ضَعُفَتِ الرِّعَايَةُ، وَتَخَلْخَلَ البَيْتُ، وانْقَلَبَـتِ المَـوَازِينُ، بِحَيْثُ أُهْمِلَ الوَلَدُ فِي سِنِّ تَفَتُّحِهِ عَنْ حُسْـنِ التَّوْجِيـهِ، أو نَشَـأَ فِي بِيئَةٍ لا تَعْرِفُ التَّوْجِيهَ، ورَأَى القُدْوَةَ السَّيِّئَةَ بِالقَوْلِ والفِعْلِ، فَإِنَّـهُ سَيَتَحَوَّلُ إِلَى عَدُوٍّ يُخْشَـى مِنْـهُ، مُنْحَـرِفٍ عَـنْ الطَّرِيـقِ السَّـوِيِّ،

لِيَكُـونَ عَاقّـاً لِوَالِدَيْـهِ، غَـيْرَ مُسْـتَجِيبٍ لِلإِرْشَـادِ فِي أُمُـورِ دِينِـهِ والمُحَافَظَةِ عَلَى شَعَائِرِ رَبِّـه، كَـمَا قَـالَ سُـبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[1].

فَالابْنُ إِذَا لَمْ يَتَخَلَّقْ بِآدابِ الإِسْلامِ، وَلَمْ يَكُـنْ فِي تَعَامُلِـهِ مَـعَ أَبَوَيْهِ مُنْطَلِقاً مِنْ تَعَالِيمَ هَذَا الدِّينِ وَأَوَامِرِهِ، الَّتِي يَتَلَقَّاهُ مِنْ أَبَوَيْـهِ فِي البَيْتِ، وَمِنْ أَسَاتِذَتِهِ فِي المَدْرَسَةِ، فَإِنَّهُ يَكْبُرُ وَتَنْمُو مَعَهُ العَدَاوَةُ لِوَالدَيْهِ، وَتَزِيـدُ فِي نَفْسِـهِ الأُمُـورُ السَّـيِّئَةُ لِيَكُـونَ فِتْنَـةً يَشْـغَلُهُمَا هَاجِساً وَمُتَابَعَةً وإِحْسَاساً عن الأُمُورِ التَّعَبُّدِيَّةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هَذَا الابْنُ ضَاراً بِوَالِدَيْهِ، جَالِباً لَهُمَا المَتَاعِـبَ والمُشْـكِلاتِ، بِتَصَرُّـفَاتِهِ وآثارِهِ حَوْلَ نَفْسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ.

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يُكَرِّرُ فِي دُعَائِـهِ: اللهُـمَّ لا تَجْعَلْنِـي وَلَـدَ سُوءٍ، وَلا وَالِدَ سُوءٍ. فَالْوَلَـدُ السُّـوءُ يُرْهِـقُ وَالِدَيْـهِ، وَتَسُـوؤُهُمَا تَصَرُّفَاتُهُ، والوَالِدُ السُّـوءُ، يَـنْعَكِسُ أَثَـرُهُ عَـلَى أَوْلادِهِ، فَيُقَلِّدُونَـهُ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ نَمُوذَجَهُمْ، الَّذِي تَفَتَّحَتْ عُيُونُهُمْ عَلَى تَصَرُّفَاتِهِ.

لَمْ يَنْحَزْ شُرَيْحٌ إِلَى وَلَدِهِ أَحَبِّ النَّـاسِ إِلَيْـهِ وَقَـدْ صَـارَحَهُ بَـلْ

(١) التغابن: ١٤.

حَرَّضَهُ عَلَى التَّوَجُّهِ للتَّقَاضِي فَقَطْ لا لِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَحْفَظَ حَقَّ خُصُومَةِ وَلَدِهِ وَلَيْسَ لِيَقْضِيَ لَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَيُلَبِّسَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ بَلْ لِيُسَانِدَ العَدْلَ وألا يَتْرُكَ شُبْهَةً يُمْكِنُ أَنْ تَفْتَحَ بَاباً لِلأَنْفُسِ الضَّعِيفَةِ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَغِلَّهَا.

إِنَّ الأَبْنَاءَ، كُلَّمَا حَرِصَ الوَالِدَانِ عَلَيْهِمْ: ذُكُوراً وإناثاً مُنْذُ تَفَتَّحَتْ عُقُولُهُمْ لِتَلْقِينِهِمْ حُسْنَ التَّعَامُلِ مَعَ الآخَرِينَ، وَعَدَمَ التَّكَبُّرِ والاسْتِعْلاءِ، والتَّأَدُّبَ فِي الحَدِيثِ، واحْتِرَامَ الأَكْبَرِ مِنْهُمْ، وَإِنْزَالَ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ، وَحُسْنَ الإِجَابَةِ عِنْدَمَا يَتَكَلَّمُ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُمْ، وَاتِّبَاعَ الحَقِّ أَيْنَمَا كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ- فَإِنَّمَا يَغْرِسَانِ فِيهِمْ بُذُورَ الخَيْرِ، الَّتِي يَأْخُذُهَا الأَبْنَاءُ جُزْءاً مِنْ كِيَانِهِمْ، فَمِثْلَمَا يُغَذِّيهِ وَالِدَاهُ بِحُسْنِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ، وَمِثْلَمَا يَحْرِصَانِ عَلَى تَوْفِيرِ مُتَطَلَّبَاتِ الحَيَاةِ العَدِيدَةِ لَهُ فِي البَيْتِ والمَدْرَسَةِ- تِلْكَ الأَشْيَاءُ الَّتِي يَعْتَدُّ بِهَا الابْنُ، لِيُفَاخِرَ بِهَا أَقْرَانَهُ- فَإِنَّهُ لَنْ يَنْسَى مَعَ حُسْنِ الرِّعَايَةِ، وَإِحْسَانِ الوَالِدَيْنِ إِلَيْهِ: الإِشَادَةَ بِهِمَا، وَتَقْدِيرَ دَوْرِهِمَا نَحْوَهُ، وَعَظِيمَ عَطَائِهِمَا، وَتَرْبِيَتَهُمَا لَهُ.

فَالأَبْنَاءُ مَعَ أَبَوَيْهِمْ كَالأَرْضِ مَعَ المُزَارِعِ، فَإِنْ اهْتَمَّ بِأَرْضِهِ، وَأَجَادَ فِي رِعَايَتِهَا وَالعِنَايَةِ بِهَا، جَادَ نَبْتُهَا، وَطَابَ ثَمَرُهَا، وإِنْ

أَهْمَلَهَا، وَخَفَّ مِيزَانُهَا عِنْدَهُ، لَنْ يَجِدَ فِيهَا مَا يَسُرُّهُ، غَيْرَ الشَّوْكِ وسَيِّئِ النَّبَاتِ، لأَنَّ كُلاً مِنَ الطَّرَفَيْنِ: يَحْصُدُ مِمَّا بَذَرَ، فَإِنْ اجْتَهَدَ وَبَذَلَ شَيْئاً نَافِعاً مُفِيداً، فَإِنَّهُ سَيَحْمَدُ العَاقِبَةَ فِي الحَصَادِ، وَإِنْ أَهْمَلَ أَوْ زَرَعَ شَيْئاً رَدِيئاً وَلا نَفْعَ فِيهِ، جَاءَهُ مِنَ المَحَاصِيلِ نَوْعٌ مِمَّا زَرَعَ جِنْساً وَطَعْماً، فَلَنْ يَحْصُدَ قَمْحاً أو أرْزاً مَنْ بَذَرَ ذُرَةً أو شَعِيراً، لأَنَّ الجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.

وَلَقَدْ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ التَّرْبِيَةَ العَمَلِيَّةَ لِلأطْفَالِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ فَلَقَدْ أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ- رضي الله عنهما- تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»[1].

هَذَا مَعَ أَنَّ الحَسَنَ كَانَ طِفْلاً صَغِيراً فَهُوَ عِنْدَمَا تُوُفِّيَ النبي ﷺ لَمْ يَتَجَاوزْ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهِ.

افْتِقَارٌ وَجَنَّةٌ خَيْرٌ مِنْ غِنًى وَنَارٍ:

وَلَقَدْ ضَرَبَ لَنَا السَّلَفُ الصَّالِحُ أَعْظَمَ المَثَلِ فِي تَعْلِيمِ أَبْنَائِهِمُ الحَقَّ وَالخَيْرَ، فَمِمَّا يُرْوَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ أَمَرَ بِدَعْوَةِ أَبْنَائِهِ فَجَاؤوا مُسْرِعِينَ (اثْنَا عَشَرَ وَلَداً وَبِنْتاً، شُعْثاً غُبْراً،

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١) ومسلم (١٠٦٩).

قَدْ زَايَلَتْ جُسُومَهُمْ الشَّاحِبَةَ نَضْرَةُ النَّعِيمِ) وَجَلَسُوا يُحِيطُونَ بِـهِ، وَرَاحَ يُعَانِقُهُمْ بِنَظَرَاتِهِ الحَانِيَةِ الآسِيَةِ.. وَرَاحَ يُوَدِّعُهُمْ بِقَوْلِـهِ: يَـا بَنِيَّ إِنَّ أَبَـاكُمْ خُـيِّرَ بَـيْنَ أَمْـرَيْنِ، أَنْ تَسْـتَغْنُوا وَيَـدْخُلَ النَّـارَ، أو تَفْتَقِرُوا وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ، فاخْتَارَ الجَنَّةَ وآثَرَ أَنْ يَتْرُكَكُمْ لله الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ.

الدروس المستفادة من القصة:

١- إِنَّ عَلَى الأَبِ أَنْ يُعْطِيَ لأَبْنَائِهِ أَمْثِلَةً وَاقِعِيَّةً عَلَى الأَخْـلاَقِ والمَبَادِئِ وَالقِيَمِ، وَأَنْ لا تَبْقَى هَذِهِ الأُمُورُ حَبِيسَـةً ضِـمْنَ سِـيَاجِ الأُمُورِ النَّظَرِيَّةِ والكَلامِيَّةِ فَحَسْبُ.

٢- يَأْتِي الإِشْكَالُ مِنْ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الآبَاءِ يَخْلِطُونَ بَيْنَ القَسْـوَةِ المُضِرَّةِ بِالأَبْنَاءِ، والحَزْمِ اللازِمِ لِتَرْبِيَتِهِمْ.

٣- يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الحَقُّ عِنْدَنَا أَقْرَبَ مِنْ أَيِّ قَرِيبٍ.



[٩]

لا بُدَّ يَوْماً أَنَ تـرَدَّ الوَدَائِعُ

لَا بُدَّ يَوماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ- رضي الله عنه- قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى النبي ﷺ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ الله ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا لِفُرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ**»[1].

حقَائِقُ يَجبُ ألا تغِيبَ عنَّا :

أَيُّهَا الآبَاءُ :

إِنَّ حَقِيقَةَ إِيمَانِنَا تَقُولُ لَنَا: إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ قَبْلَ أَجَلِهَا، وَلَنْ تَخْرَجَ مِنَ الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِهَا المَكْتُوبِ لَهَا وَلا بِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَنْ تَتَأَخَّرَ، وَإِنَّ الوَاقِعَ الَّذِي نَعِيشُهُ يُعَلِّمُنَا أَنَّهُ مَهْمَا بَلَغَ المَرْءُ فِي إِيمَانِهِ، وَتَمَكَّنَ اليَقِينُ فِي جِنَانِهِ إِلاّ أَنَّ لِلْفِرَاقِ حَسْرَةً فِي الفُؤَادِ، وانْكِسَارًا فِي القَلْبِ، وَوَقْعًا أَلِيمًا فِي النَّفْسِ، وَطَعْمًا مُرًا كَالحَنْظَلِ فِي كُلِّ ذَرَّاتِ أَجْسَادِنَا يَصْعُبُ تَحَمُّلُهُ وَتَدَارُكُ وَجَعِهِ، فَكَيْفَ إذا كَانَ الفَقِيدُ أَبًا أَوْ أمًا أَوْ وَلَدًا ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى؟! وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

وَحِيدُهُ مِنَ الأَوْلادِ ؛ فَالمَرَارَةُ أَشَدُّ، والخَطْبُ أَجَلُّ، والمُصَابُ أَعْظَمُ.

أبْناؤنا ودَائِعُ عِندَنا :

أَيُّهَا الأَبُ:

إِنَّ اللهَ يُعْطِيكَ الأَوْلادَ أَمَانَةً وَوَدِيعَةً (أَرْجُو أَنْ لا يَغِيبَ عَنْ فِكْرِكَ مَعْنَى الأَمَانَةِ وَالوَدِيعَةِ): فَيَبْتَلِيكَ بِمَحَبَّتِكَ لَهُمْ، وَحِرْصِكَ عَلَيْهِمْ، وَتَرْبِيَتِهِمْ وَالعَطْفِ عَلَيْهِمْ، فَلا يَهْنَأُ لَكَ نَوْمٌ إِلاّ بِرَاحَتِهِمْ، وَلا يَطِيبُ لَكَ عَيْشٌ إِلاّ بِسَعَادَتِهِمْ، فَلِذَا تَشْقَى لِيَسْعَدُوا، وَتَنْصَبُ وَتَتْعَبُ لِيَرْتَاحُوا، وَتَبْذُلُ كُلَّ طَاقَتِكَ وَمَالِكَ لِيَعِيشُوا العِيشَةَ الكَرِيمَةَ، تَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ نِسْمَةِ الهَوَاءِ البَارِدَةِ، وَتَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ لَفْحَةِ الشَّمْسِ اللاذِعَةِ، وَتَحْمِيهِمْ مِنْ كُلِّ مَرَضٍ طَفِيفٍ، وَكُلِّ جُرْحٍ خَفِيفٍ، حَتَّى تَرَاهُمْ زِينَةً تَتَزَيَّنُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا وَصَفَهُمْ اللهُ- تَعَالَى- بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

وَلَكِنَّ قَضَاءَ اللهِ- تَعَالَى- يَقْضِي أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ تُسْتَرَدّ فيه الأَمَانَةُ، وَتُسْتَرْجَعُ فِيهِ الوَدِيعَةُ، لِيَجْعَلَكَ فِي امْتِحَانٍ أَكْثَرَ صُعُوبَةً، فَيُمَحِّصُكَ، وَيَجْعَلُكَ كَالذَّهَبِ إِذَا أُحْرِقَ وَأُدْخِلَ النَّارَ، لَيَخْرُجَ لَمَعَانُهُ أَشَدَّ بَرِيقًا وَلَمَعَاناً إِنْ وُفِّقْتَ فِي الامْتِحَانِ، فَإِنَّ اللهَ- تَعَالَى-

(١) الكهف: ٤٦.

يَقُولُ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[1].

المُصَابُ كَبِيرٌ لَكِنَّ الأَجْرَ عَظِيمٌ وَعَمِيمٌ :

مَا أَجْمَلَ الزَّاد! وَمَا أَرْوَعَ الرِّحْلَة! وَمَا أَكْرَمَ العَطَاء! فَالزَّادُ الصَّبْرُ والصَّلاةُ، وَالرِّحْلَةُ هِيَ الابْتِلاءُ، والعَطَاءُ الكَرِيمُ مِنَ الرَّبِّ الكَرِيم: صَلَوَاتٌ، وَرَحْمَةٌ، وَهِدَايَةٌ.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخيرِ، بَعْدَ أَنْ مَاتَ لَهُ وَلَدٌ: وَالله لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لِي، فَأَخَذَهَا اللهُ- عز وجل- مِنِّي، ثُمَّ وَعَدَ لِي عَلَيْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ، لَرَأَيْتُهَا لِتِلْكَ الشَّرْبَةِ أَهْلاً، فَكَيْفَ بِالصَّلاةِ والرَّحْمَةِ وَالهُدَى!

اسْتَرْجِعْ وَلَكَ بَيْتُ الحَمْدِ:

كَثِيرَةٌ هِيَ المَصَائِبُ، وَمُتَلَوِّنَةٌ أَشْكَالُهَا، وَلَكِنَّ مَوْتَ الأَبْنَاءِ وَفَقْدَهُمْ أَمْرٌ أَشَدُّ مِمَّا تَتَوَقَّعُهُ القُلُوبُ أَوْ تَحْسِبُ لَهُ العُقُولُ، وَلِعَظَمَتِهِ عَظَّمَ اللهُ شَأْنَهُ، وَجَزَى عَلَيْهِ بِخَيْرِ الجَزَاءِ لِمَنْ كَانَ مِنَ الصَّابِرِينَ .

فَعَنْ أَبِي سِنَانٍ قَالَ: دَفَنْتُ ابْنِي سِنَانًا وَأَبُو طَلْحَةَ الخَوْلانِيُّ

(١) البقرة: ١٥٥-١٥٧.

جَالِسٌ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَلَمَّا أَرَدْتُ الْخُرُوجَ أَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: أَلا أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا سِنَانٍ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَرْزَبٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ الله لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ الله: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ**»[1].

فَيَا لَلْكَرَمِ الرَّبَّانِيِّ؛ إِنَّهُ إِشْعَارٌ لِلْوَالِدِ أُمًّا أَوْ أَبًا أَنَّ ابْنَكُمْ غَالٍ وَهُوَ ثَمَرَةُ فُؤَادِكُمْ، وَفَلْذَةُ أَكْبَادِكُمْ، وَلَكِنْ إذا صَبَرْتم وَاحْتَسَبْتُمْ وَلَمْ تَعْتَرِضُوا عَلَى قَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ فَإِنَّ الجَزَاءَ سَيَكُونُ عَظِيماً، وَالثَّوَابَ سَيَأْتِيكُمْ جَزِيلاً، إِنَّهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ اسْمُهُ بَيْتُ الحَمْدِ، بَيْتٌ بَاقٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، لا دُنْيَا فَانِيَةٌ .

أَمَّا أَنْ تَحْزَنَ قُلُوبُكُمْ، أَمَّا أَنْ تَبْكِي دُمُوعُكُمْ، أَمَّا أَنْ تَهِلَّ الدُّمُوعُ السَّوَاكِبُ عَلَى فِرَاقِ الأَحِبَّةِ، فَهَذَا مِنْ إِنْسَانِيَّتِكُمْ، وَعَطْفِكُمْ وَحَنَانِكُمْ، فَإِنَّ لَكُمْ ذِكْرَياتٍ فِي كُلِّ دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِ حَبِيبِكُمْ وَفَقِيدِكُمْ، وَلَكِنْ امْسَحُوا دُمُوعَ الحُزْنِ قَلِيلاً، وَعِيشُوا

(١) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وقال: « حسن غريب»، وحسنه الألباني.

لَحَظَاتٍ رُبَّمَا تَغِيبُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُبْتَلُونَ بِفَقْدِ أَوْلادِهِمْ أَوْ زَوْجَاتِهِمْ، تِلْكَ اللَّحْظَةُ الَّتِي يُؤْمَرُ بِنَا جَمِيعًا بِإِذْنِهِ- سُبْحَانَهُ- إِلَى الجَنَّةِ، فَيُقَالُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1]. فَإِذَا بِالأُسْرَةِ وَأَفْرَادِهَا يَجْتَمِعُونَ، وَيَأْتَلِفُونَ بَعْدَ طُولِ فِرَاقٍ قَضَوْهُ فِي القُبُورِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ تَتْبَعُهُ ذُرِّيَّتُهُ، لِيَزْدَحِمُوا عِنْدَ بَابَ الجَنَّةِ، وَيَأْخُذُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَى غُرَفِهِمْ وَقُصُورِهِمْ حَيْثُ هُنَاكَ لا بُعَادٌ وَلا فِرَاقٌ، بَلْ دَائِماً أُنْسٌ وَلِقَاءٌ وَتَلاقٍ.

فَيَا أَيُّهَا الصَّابِرُونَ: لِمَ النَّحِيبُ عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ أَعَدّ اللهُ لَنَا فِي الآخِرَةِ مِنْ اللُّقْيَا وَالفَرْحَةِ والأُنْسِ فِي الجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، هُنَاكَ نَلْقَى الأَحِبَّةَ وَخَيْرَ الأَحِبَّةِ، نَلْقَى مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ .

التَّرْبِيَةُ الحَسَنَةُ ذُخْرٌ لَكُمْ وَإِصْلاحٌ لَهُمْ :

أيها الآباء:

اللهَ اللهَ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلادِكُمْ عَلَى الصَّلاحِ؛ فَإِنَّ الوَلَدَ الصَّالِحَ شَرَفٌ لأَبَوَيْهِ فِي حَيَاتِهِ، وَشَرَفٌ بَعْدَ مَمَاتِهِ لأَنَّهُ بَذْرَةُ خَيْرٍ يُرْجَى لَهَا أَنْ تَكُونَ شَجَرةً سَامِقَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ فَرَطاً لِوَالِدَيْهِ إِلَى الجَنَّاتِ

(١) النحل: ٣٢.

العُلا، فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ تُلْهِينَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا عَنْ صِيَاغَةِ حَيَاةٍ إِيمَانِيَّةٍ لأُسَرِنَا تَقُومُ عَلَى الحِرْصِ عَلَى الصَّلاةِ والأَذْكَارِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ والرَّحْمَةِ، والعَطَاء لِهَذَا الدِّينِ.

لِذلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُرَبِّي أَوْلادَنَا عَلَى مَنْهَجِ كِتَابِ الله، وَوِفْقَ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَلْنَحْرِصْ عَلَى هَذِهِ التَّرْبِيَةِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظَافِرِهْمْ حَيْثُ مَرْحَلَةُ التَّنْشِئَةِ ..

فَالأَطْفَالُ كَالنَّبْتَةِ الصَّغِيرَةِ تَحْتَاجُ إِلَى رِعَايَةٍ تَامَّةٍ مِنْ مَاءٍ وَهَوَاءٍ وَشَمْسٍ حَتَّى تَكْبُرَ وَتَشْتَدَّ..

وَهُمْ فِي حَاجَةٍ إلى مُتَابَعَةٍ وَتَوْجِيهٍ مَا دَامُوا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ مِنَ العُمْرِ..

حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عُودُهُمْ وَصَارُوا كِبَاراً كَانُوا عَلَى خَيْرٍ بِإِذْنِ الله، وَإِنْ مَاتُوا كَانْ العَزَاءُ لَكُمْ بِأَنَّكُمْ لَمْ تُقَصِّرُوا فِي تَرْبِيَتِهِمْ، وَلَمْ تُفَرِّطُوا فِي تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّتِهِمْ، وَتَكُونُونَ قَدْ أَعَدَدْتُمُوهُمْ لِيَكُونُوا فَرَطاً صَالِحاً إِلَى الجَنَّةِ .

أيها الآباءُ

نِعْمَةُ الذُّرِّيَةِ نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ لا يُقَدِّرُ قِيمَتَهَا إِلا مَنْ فَقَدَهَا،

وَالنِّعْمَةُ تَسْتَحِقُّ الشُّكْرَ لِلْمُنْعِمِ..

وَمِنْ مَظَاهِرِ شُكْرِهَا حُسْنُ تَرْبِيَتِهَا وَرِعَايَتِهَا الرِّعَايَةَ الشَّرْعِيَّةَ الصَّحِيحَةَ. وَلَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ الصَّبْرُ عِنْدَ فَقْدِهِمْ وَمَوْتِهِمْ هُوَ مِنْ شُكْرِ الله عَلَى نِعْمَتِهِ كَذَلِكَ؛ لأَنَّ مِنْ إِيمَانِنَا بِالله- تَعَالَى- نَعْلَمُ أَنَّ أَوْلادَنَا هُمْ وَدَائِعُ عِنْدَنَا وَلا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ.

وَكَمَا قُلْنَا الدُّمُوعُ رُبَّمَا تَذْرِفُ، وَالعُيُونُ رُبَّمَا تَفِيضُ، وَالقُلُوبُ رُبَّمَا تَحْزَنُ، وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ اعْتِرَاضاً عَلَى قَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ بَلْ هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرَ الرَّحْمَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ.

الدروس المستفادة من القصة:

١- الأَوْلادُ وَدَائِعُ وَأَمَانَاتٌ عِنْدَ أَهْلِيهِمْ، وَالوَدَائِعُ لاَ بُدَّ أَنْ تُرَدَّ فِي يَوْمٍ مِنْ الأَيَّامِ.

٢- الصَّبْرُ مِفْتَاحٌ مِنْ مَفَاتِيحَ الجِنَانِ .

٣- البُكَاءُ والحُزْنُ مِنْ غَيْرِ تَضَجُّرٍ وَلا ضَرْبٍ لِلْخُدُودِ وَلا شَقٍّ لِلْجُيُوبِ جَائِزٌ.

٤- الرَّسُولُ ﷺ يَمْلُكُ قَلْباً أَبَوِياً كَقَلْبِ كُلِّ الآبَاءِ.

٥- عِنْدَمَا يَمُوتُ ابْنُكَ أَوْ ابْنَتُكَ وَتَصْبِرُ وَتَسْتَرْجِعُ وَتَحْمَدُ اللهَ فَإِنَّكَ قَدْ بَنَيْتَ لِنَفْسِكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ هُوَ بَيْتُ الحَمْدِ .

[١٠]

وَصِيَّة عِنْدَ السَّفَرِ

وَصِيَّةٌ عِنْدَ السَّفَرِ

أَرَادَ ابْنُ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ أَنْ يُسَافِرَ فَأَرَادَ أَبُوهُ أَنْ يُزَوِّدَهُ بِشَيْءٍ غَيْرَ زَادِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَلا وَهُوَ النَّصِيحَةُ وَالمَشُورَةُ وَالدَّلالَةُ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لِيَفْعَلَهُ، وَمَا هُوَ شَرٌّ لِيَجْتَنِبَهُ وَيَبْتَعِدَ عَنْهُ، فَنَظَمَ لَهُ قَصِيدَةً شِعْرِيَّةً طَوِيلَةً، أَبَانَ لَهُ فِيهَا عَنْ مَكْنُونِ حُبِّهِ لَهُ، وَعَنْ شَدِيدِ حُزْنِهِ عَلَى فِرَاقِهِ، ثُمَّ نَصَحَهُ بِنَصَائِحَ، بَلْ هِيَ دُرَرٌ وَجَوَاهِرُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَبٍ أَنْ يَنْصَحَ بِهَا أَبْنَاءَهُ بِهَا عِنْدَ سَفَرِهِمْ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ، فَاخْتَصَرْنَاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ نُخِلَّ بِمَعْنَاهَا، وَمِنْ دُونِ أَنْ نَنْقُصَ مِنْ مُبْتَغَاهَا، وَمَا اخْتَرْنَاهُ مِنْ أَبْيَاتِهَا يَدُلُّ عَلَى بَاقِيهَا وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ يَقُولُ فِيهَا مُخَاطِباً ابْنَهُ :

أُودِعُكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ ... مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِك

فَلا تُطِلْ حَبْلَ النَّوَى إِنَّنِي ... وَاللهِ أَشْتَاقُ إِلَى طَلعَتِك

فَاخْتَصِرْ التَّوْدِيعَ أَخْذاً فَمَا ... لِي نَاظِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِك

وَاجْعَلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ وَلا ... تَبْرَحْ مَدَى الأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِك

وَامْشِ الهُوَيْنَا مظلاً عفة ... وَابْغِ رِضَا الأَعْيُنِ مِنْ هَيْئَتِك

وَكُلُّ مَا يُفْضِي لِغَدْرٍ فَلا ... تَجْعَلْه فِي الغُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِك

وَانْطِقْ بحيث الغي مُسْتَقْبَح ... واصْمُتْ بحيث الخَيْر فِي سَكْتَتِك

وَلِحّ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ ... وَاقْصِدْ لَهُ مَا عِشْتَ فِي بَكْرَتِك

وَوَفِّ كُلاً حَقَّهُ وَلْتَكُنْ ... تَكْسِرُ عِنْدَ القَهْرِ مِنْ حِدَّتِك

واعْتَبِرْ النَّاسَ بِأَلْفَاظِهِمْ ... وَاصْحَبْ أَخاً يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِك

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٌ نُصْحَهُ ... ومكره وَقَفَ عَلَى عِزَّتِك

إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ ... عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِك

والشَّرَّ ما اسْتَطَعْتَ لا تَأْتِهِ ... فَإِنَّهُ عود عَلَى مُهْجَتِك[1]

الغُرْبَةُ صَعْبَةٌ عَلَى النُّفُوسِ :

مَا أَصْعَبَ الغُرْبَةَ، وَمَا أَشَدّها عَلَى النُّفُوسِ، فَهِيَ تُفَرِّقُ الأَحْبَابَ، وَتُبْعِدُ عَنِ الرُّفْقَةِ وَالأَصْحَابِ، تَدَعُ المَرْءَ كَأَنَّهُ يُولَدُ مِنَ جَدِيدٍ فَهُوَ سَيَرَى أُنَاساً لَمْ يَعْرِفْهُمْ، وَأَشْخَاصاً لَمْ يَأْلَفْهُمْ، فَهُوَ سَيَرْجِعُ بِهِ الزَّمَانُ لأَوَّلِ عُمْرِهِ لِيَكْتَشِفَ مُجْتَمَعاً آخَرَ مِنْ جَدِيدٍ، وَهَذَا طَبْعاً مَعَ ارْتِبَاطِهِ الوَثِيقِ بِمَا مَضَى مِنْ مَعْرِفَةٍ بِمُجْتَمَعِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ.

(١) جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت (٣/ ٢١٠) .

وَإِنَّ الغُرْبَةَ يَكُونُ وَقْعُهَا وَتَأْثِيرُهَا عَظِيماً عِنْدَمَا تُفَرِّقُ أُنَاساً جَمَعَتْهُمُ المَحَبَّةُ، وَوَثَّقَتْ العُرَى بَيْنَهُمْ الأُلْفَةُ وَالمَوَدَّةُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ أَيُّ صِلَةِ رَحِمٍ أَوْ قَرَابَةٍ، فَكَيْفَ إِذَا فَرَّقَتْ الوَلَدَ عَنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، فَإِنَّهَا سَتكُونُ قَاصِمَةً وَفَاجِعَةً، وَخَاصَّةً لِلْوَالِدَيْنِ عِنْدَ فِرَاقِ أَوْلادِهِمَا لأَنَّهُمَا سَيُفَارِقَانِ وَلَدَهُمَا وَفَلْذَةَ كَبِدِهِمَا.

وَمَا هَذَا إِلا لِمَا يَعْلَمَانِهِ مِنْ مَخَاطِرِ السَّفَرِ وَالغُرْبَةِ، وَالَّتِي هِيَ كَثِيرَةٌ وَمُتَعَدِّدَةٌ، وَلَقَدْ وَصَفَهَا أَحَدُ الشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ:

تَفَكُّرُ إِخْوَانٍ وَفَقْدُ أَحِبَّةٍ — وَتَشْتِيتُ أَمْوَالٍ وَخِيفَةُ سَارِقِ

وَكَثْرَةُ إِيحَاشٍ وَقِلَّةُ مُؤْنِسٍ — وَأَعْظَمُهَا يَا صَاحِ سَكَنُ الفَنَادِقِ

فَإِنْ قِيلَ فِي الأَسْفَارِ كَسْبُ مَعِيشَةٍ — وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصِحَّةُ فَائِقِ

فَقُلْ ذَا كَانَ دَهْراً تَقَادَمَ عَهْدُهُ — وَأَعْقَبَهُ دَهْرٌ كَثِيرُ العَوَائِقِ

وَهَذَا مَقَالِي والسَّلامُ مُؤَبَّدٌ — وَجَرِّبْ فَفِي التَّجْرِيبِ عِلْمُ الحَقَائِقِ

وَلِذَا تُصَبُّ الوَصَايَا عَلَى المُسَافِرِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ أَنْ يَكُونَ حَذِراً فَطِناً أَدِيباً أَرِيباً، وَمَا هَذَا إِلا مِنْ خَوْفِ المُوصِينَ عَلَى المُسَافِرِ مِنْ مَخَاطِرِ السَّفَرِ الَّذِي سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ قِطْعَةً مِنَ العَذَابِ

فَقَالَ: «**السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ العَذَابِ، يمنعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ**»[1].

وَفِي دِينِنَا أَيْضاً وَصَايا كَثِيرَةٌ لِمَنْ يُرِيدُونَ السَّفَرَ فَيَأْتُونَ إِلَى النَّبِيِّ لِيُوَجِّهَهُمْ، فَهَذَا رَجُلٌ يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَراً فَزَوِّدْنِي. فَقَالَ: «**زَوَّدَكَ اللهُ التَّقْوَى**». قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: «**وَغَفَرَ ذَنْبَكَ**». قَالَ: زِدْنِي. قَالَ: «**وَيَسَّرَ لَكَ الخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»[2].

وَمَا هَذَا إِلا وَصِيَّةٌ بِصِيغَةِ دُعَاءٍ: أَيْ لِيَكُنْ تَقْوَى اللهِ هِيَ الزَّادُ الَّذِي تَتَزَوَّدُ بِهِ فِي سَفَرِكَ فَالْمُسَافِرُ عِنْدَمَا يُسَافِرُ وَيَرَى أُنَاساً لا يَعْرِفُهُمْ وَلا يَعْرِفُونَهُ تَحُوطُهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ كُلِّ شَكْلٍ وَلَوْنٍ، إِنْسِيُّهَا وَجِنِّيُّهَا لِيُلْحِقُوا بِهِ الأَذَى وَالضَّرَرَ، وَيُوقِعُوهُ فِي المَعَاصِي وَالخَطَايا لِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا وَدَّعَ أَحَداً يَقُولُ لَهُ: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»[3].

فَالمُسَافِرُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى حَذِراً حَذَراً شَدِيداً وَكَمَا قِيلَ فِي التُّرَاثِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠١)، ومسلم (١٩٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٦٠٠) والترمذي (٣٤٤٣)، والنسائي في الكبرى (٨٨٠٥)، وصححه الألباني.

الانْجليزِي القَدِيم عَنْ حَذَر المسَافِرِ: (يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَيْنا صَقْرٍ لِيَرَى كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ أُذُنَا حِمَارٍ لِيَسْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ ظَهْرُ جَمَلٍ لِيَحْمِلَ كُلَّ شَيْءٍ، وَسَاقَا مِعْزَةٍ لا تَتْعَبَانِ مِنَ المَشْي، وَحَقِيبَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ بِالمَالِ والأُخْرَى بِالصَّبْرِ).

قِصَّةُ الوَدَاعِ :

كُلُّ مَا كَتَبْتُهُ لأُقَدِّمَ لِوَصِيَّةِ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ لابْنِهِ عِنْدَ السَّفَرِ وَهَذِهِ الوَصِيَّةُ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرَ أَبَوِيَّةٍ صَادِقَةٍ، وَأَحْزَانٍ عَلَى الفِرَاقِ حَارِقَةٍ، جَعَلَهَا بِشَكْلِ وَصِيَّةٍ مُغَلَّفَةٍ بِشِعْرٍ أَصِيلٍ، وَكَلامٍ عَذْبٍ سَلْسَبِيلٍ، وَصَدَّرَهَا بِإِيدَاعٍ لابْنِهِ فِي حِفْظِ الحَفِيظِ الجَلِيلِ فَمَا أَرْوَعَهُ مِنْ قَوْلٍ عِنْدَمَا يَقُولُ:

أُودِعُكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ ... مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِك

فَلا تُطِلْ حَبْلَ النَّوَى إِنَّنِي ... وَالله أَشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِك

وَكَمْ يُعَبِّرُ كَلامُهُ عَنْ صُعُوبَةِ الفِرَاقِ عِنْدَمَا يَقُولُ:

فَاخْتَصِرْ التَّوْدِيعَ أَخْذاً فَمَا ... لِي نَاظِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِك

ثُمَّ بَدَأَ وَصِيَّتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لابْنِهِ بِكُلِّ مَا يَحْفَظُ لابْنِهِ دِينَهُ وَنَفْسَهُ وَأَخْلاقَهُ وَمُرُوءَتَهُ وَيَأْمُرُهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ الوَصِيَّةُ نُصْبَ

عَيْنَيْهِ وَدَائِماً بَيْنَ يَدَيْهِ، مُلازِمَةً لِفِكْرِهِ وَعَقْلِهِ وَخَاطِرِهِ يَقُولُ:

وَاجْعَلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ وَلا ... تَبْرَحْ مَدَى الأَيَّامِ عَنْ فِكْرَتِك

وَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ يَأْخُذُ عَهْداً عَلَى ابْنِهِ أَنْ يَلْزَمَ الوَصِيَّةَ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهَا لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ عَلَيْهِ وَلا يَضْطَرِبَ فِكْرُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْرِدُ وَصِيَّتَهُ بِأُسْلُوبٍ رَائِعٍ، وَطَرْحٍ جَمِيلٍ مَا بَيْنَ تَرْغِيبٍ وَتَحْذِيرٍ، وَأَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَتَقْرِيبٍ وَتَبْعِيدٍ فِي أَبْيَاتٍ كَثِيرَةٍ اقْتَصَرْنَا مِنْهَا عَلَى بَعْضِهَا فَهِيَ مُعَبِّرَةٌ عَنْ بَاقِيهَا بِمَا فِيهَا مِنْ رَوْعَةِ النَّظْمِ وَجَزَالَةِ الأَلْفَاظِ وَقُوَّةِ المَعَانِي وَتَدَفُّقِ الشَّفَقَةِ وَالمَوَدَّةِ وَالمَحَبَّةِ.

هَكَذَا فَلْتَكُنْ الوَصِيَّةُ لِلأَبْنَاءِ عِنْدَ السَّفَرِ :

هَكَذَا أَيُّهَا الآبَاءُ لِتَكُنْ وَصَايَاكُمْ لأَبْنَائِكُمْ فِي صِغَرِهِمْ وَكِبَرِهِمْ، فِي حِلِّهِمْ وَتِرْحَالِهِمْ، وَفِي كُلِّ أُمُورِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ.

لِتَكُنْ وَصِيَّتُكُمْ مُذَكِّرَةً لَهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِمِ لِرَبِّهِمْ وَبِمأمورات رَبِّهِمْ، مَا أَعْظَمَ كَلِمَاتُ الأَبِ عِنْدَمَا يَرْبِتُ عَلَى كَتِفَيْ ابْنِهِ عِنْدَ الفِرَاقِ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ بِكَلِمَاتٍ مِلْؤُهَا الصِّدْقُ وَالإِخْلاصُ وَالنُّصْحُ:

بِتَوْفِيقِ الله يَا وَلَدِي، لا تَنْسَ مَا عَوَّدْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ صَوْتِكَ النَّدِيِّ وَتَرْتِيلِكَ لِكَلامِ رَبِّكَ العَلِيِّ.. وَقِيَامِكَ اللَّيلَ..

كُنْ يَا وَلَدِي مَعَ اللهِ.. يَكُنِ اللهُ مَعَكَ.. وَلا تَنْسَ الدُّعَاءَ لِوَالِدَيْكَ وَأَنْتَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. فَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ مُسْتَجَابَةٌ .

مَا أَرْوَعَ الوَصِيَّةُ عِنْدَمَا يَقُولُ الأَبُ لابْنِهِ فِيهَا: رِسَالَتُكَ يَا وَلَدِي رِسَالَةُ الإِسْلامِ، واعْلَمْ أَنَّكَ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، لِتَكُنْ يَا وَلَدِي السَّفِيرَ النَّاجِحَ لأُمَّتِكَ وَدِينِكَ وَوَطَنِكَ.. وَاجْعَلِ النَّاسَ يَعْرِفُونَ الإِسْلامَ مِنْ خِلال مُعَامَلَةِ أَبْنَاءِ الإِسْلامِ لَغَيْرِهِمْ، فَأَنْتَ الـمَثَلُ وَأَنْتَ القُدْوَةُ.

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

آبَاؤُكُمْ عِنْدَمَا يُوصُونَكُمْ، وَيَأْمُرُونَكُمْ، وَيَنْهَوْنَكُمْ لَيْسَ حُباً فِي تَسَلُّطٍ، وَلا شَغَفاً فِي إِصْدَارِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، بَلْ هُوَ نَبْعُ الأُبُوَّةِ الدَّفَّاقِ الَّذِي تَتَفَرَّعُ مِنْهُ كُلُّ سَوَاقِي الشَّفَقَةِ وَالمَحَبَّةِ وَالعَطْفِ وَالحَنَانِ وَحُبِّ الخَيْرِ لَكُمْ وَعَلَيْكُمْ.

حَاوِلُوا ثُمَّ حَاوِلُوا أَلا يَجِدَكُمْ اللهُ حَيْثُ نَهَاكُمْ، وَاجْتَهِدُوا أَنْ لا يَفْقِدَكُمْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ.

إِنَّ تَقْوَى اللهِ تَشْمَلُ تَفَاصِيلَ حَيَاتِنَا فِي عَلاقَتِنَا بِرَبِّنَا وَعَلاقَتِنَا بِأَنْفُسِنَا وَعَلاقَتِنَا بِأُسَرِنَا، وَعَلاقَتِنَا بِمُجْتَمَعِنَا القَرِيبِ وَالبَعِيدِ، عِنْدَمَا نَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعِنْدَمَا نَخْلُو بِأَنْفُسِنَا، فِي حِلِّنَا وَتِرْحَالِنَا.

إِنَّ أَهَمَّ مَا يَنْبَغِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتَنُوا بِهِ هُوَ دِينُكُمْ وَفِي كُلِّ أَوْقَاتِكُمْ، فَمَا قِيمَةُ المَالِ والمَسْكَنِ وَالوَظِيفَةِ وَالْمُسْتَشْفَى وَالعَيْشِ الرَّغِيدِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ- جَلَّ جَلالُهُ؟

كُنْ أَيُّهَا الشَّابُّ الْمُسَافِرُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فِيكَ، كُنْ ابْنَ الوَطَنِ، وَرَبِيبَ الإِيمَانِ، وَمَنْبَتَ الإِحْسَانِ.. وَبِمِثْلِ ذَلِكَ فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ.

الدروس المستفادة من القصة :

١- الآبَاءُ يَحْزَنُونَ لِفُرَاقِ أَوْلادِهِمْ فَعَلَى الأَوْلادِ أَلاَّ يُطِيلُوا غِيَابَهُمْ عَنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ.

٢- الآبَاءُ لا يَنْبَعِثُ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ إِلا كُلُّ خَيْرٍ وَمَحَبَّةٍ وَشَفَقَةٍ وَعَطْفٍ وَحَنَانٍ فَعَلَى الأَبْنَاءِ أَلاَّ يُضَيِّعُوا هَذَا الخَيْرَ العَمِيمَ بِعُقُوقٍ أَوْ صُدُودٍ.

٣- عَلَى الآبَاءِ أَنْ يُزَوِّدُوا أَرْوَاحَ وَعُقُولَ أَبْنَائِهِمْ كَمَا يُزَوِّدُونَ أَجْسَادَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ، وَخَيْرُ زَادٍ هُوَ زَادُ التَّقْوَى وَمُرَاقَبَةُ اللهِ تَعَالَى.

٤- عَلَى الأَبْنَاءِ أَنْ يَكُونُوا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ أَهْلِهِمْ بِهِمْ، وَيَكُونُوا خَيْرَ سُفَرَاء لِدِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ وَأَهْلِهِمْ.

[١١]

أَسْمَاؤهُمْ أَمَانَةٌ

في أَعْناقِكُمْ

أَسْمَاؤُهُمْ أَمَانَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الـمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنِ بْنِ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيِّ قَالَ: قَدِمَ جَدِّي حَزْنٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**». قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ قَالَ: «**بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ**». قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمٍ سَمَّانِيهِ أَبِي. قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الحُزُونَةُ بَعْدُ(١).

لِلاسْمِ تَأْثِيرٌ عَلَى الْمُسَمَّى:

إِنَّ لِلاسْمِ فِي حَيَاةِ أَيِّ فَرْدٍ تَأْثِيراً كَبِيراً فِي شَخْصِيَّتِهِ وَتَكْوِينِهِ وَتَطَوُّرِهِ وَتَفَاعُلِهِ مَعَ ذَاتِهِ وَمَعَ مُجْتَمَعِهِ، وَلِذَا أَوْلَى الإِسْلامُ مَوْضُوعَ التَّسْمِيَةِ عِنَايَةً خَاصَّةً، وَإِنَّنَا لَنَجِدُ فِي تُرَاثِنَا الإِسْلامِيِّ الكَثِيرَ مِنَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَحْرِصُ عَلَى ضَرُورَةِ تَحْسِينِ الأَسْمَاءِ وَنَبْذِ القَبِيحِ مِنْهَا.

فَلِلأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمُسَمَّى سَلْباً وَإِيجَاباً، وَلِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُغَيِّرُ الأَسْمَاءَ القَبِيحَةَ وَالْمَنْهِيَّ عَنِ التَّسَمِّي بِهَا؛ فَمَثَلاً غَيَّرَ اسْمَ بَرَّةَ إِلَى زَيْنَبَ وَقَالَ: «**لا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ البِرِّ مِنْكُمْ**»(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٩٠). **الحزن**: ما غلظ من الأرض. ويقال: في خلق فلان حزونة، أي غلظة وقساوة، وكأن النبي ﷺ كره الاسم لهذا المعنى فأبدله بضده تفاؤلاً، فأبى الرجل.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٢)، وأبو داود (٤٩٥٣).

وَغَيَّرَ اسْمَ حَزْنٍ إِلَى سَهْلٍ، وَغَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةٍ إِلَى جَمِيلَةٍ..وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ. وَتَغْيِيرُ النَّبِيِّ ﷺ لِهَذِهِ الأَسْمَاءِ بِأَفْضَلَ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ ارْتِبَاطاً وَتَلازُماً بَيْنَ الاسْمِ وَالْمُسَمَّى.

قَالَ ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ- رحمه الله: (لَمَّا كَانَتِ الأَسْمَاءُ قَوَالِبَ لِلْمَعَانِي، دَالَّةً عَلَيْهَا، اقْتَضَتْ الحِكْمَةُ أَنَّ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ارْتِبَاطٌ وَتَنَاسُبٌ، وَأَلاَّ يَكُونَ الْمَعْنَى مَعَهَا بِمَنْزِلَةِ الأَجْنَبِيِّ الْمَحْضِ الَّذِي لا تَعَلُّقَ لَهُ بِهَا، فَإِنَّ حِكْمَةَ الحَكِيمِ ذَلِكَ، وَالوَاقِعُ يَشْهَدُ بِخِلافِهِ، بَلْ لِلأَسْمَاءِ تَأْثِيرٌ فِي الْمُسَمَّيَاتِ، وَلِلْمُسَمَّيَاتِ تَأَثُّر عَنْ أَسْمَائِهَا فِي الحُسْنِ وَالقُبْحِ، وَالخِفَّةِ وَالثِّقَلِ، وَاللَّطَافَةِ وَالكَثَافَةِ، كَمَا قِيلَ:

وَقلما أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ   إِلا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهِ

وَلَقَدْ قِيلَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ جَدِّ الرَّسُولِ ﷺ: مَا سَمَّيْتَ وَلَدَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّداً، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ سَمَّيْتَهُ بِاسْمٍ لَيْسَ لأَحَدٍ مِنْ آبَائِكَ وَقَوْمِكَ؟ فَقَالَ: سَمَّيْتُهُ مُحَمَّداً لأَنِّي أَرْجُو أَنْ يَحْمَدَهُ أَهْلُ الأَرْضِ كُلُّهُمْ وَيَحْمَدَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ.

وَكَانَ ﷺ يَسْتَحِبُّ الاسْمَ الحَسَنَ، وَأَمَرَ إِذَا أَبْرَدُوا إِلَيْهِ بَرِيداً أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الاسْمِ حَسَنَ الوَجْهِ، وَكَانَ يَأْخُذُ الْمَعَانِي مِنْ أَسْمَائِهَا فِي الْمَنَامِ وَاليَقَظَةِ، كَمَا رَأَى أَنَّهُ وَأَصْحَابَهُ فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ

رَافِعٍ، فَأُتُوا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ، فَأَوَّلَهُ بِأَنَّ لَهُـمُ الرِّفْعَـةَ فِي الدُّنْيَا، وَالعَاقِبَةَ فِي الآخِرَةِ، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي اخْتَـارَهُ اللهُ لَهُـمْ قَـدْ أَرْطَبَ وَطَابَ، وَتَأَوَّلَ سُـهُولَةَ أَمْـرِهِمْ يَـوْمَ الحُدَيْبِيـةِ مِـنْ مَجِـيءِ سُهَيْلِ ابْنِ عَمْرٍو إِلَيْهِ.

وَنَدَبَ جَمَاعَةً إِلَى حَلْبِ شَاةٍ، فَقَامَ رَجُـلٌ يَحْلِبُهَـا، فَقَـالَ: «**مَـا اسْـمُكَ؟**» قَـالَ: مُـرَّةٌ، قَـالَ: «**اجْلِـسْ**»، فَقَـامَ آخَـرُ فَقَـالَ: «**مَـا اسْمُكَ؟**» قَالَ- أَظُنُّهُ: حَرْبٌ، فَقَالَ: «**اجْلِسْ**»، فَقَامَ آخَـرُ فَقَـالَ: «**مَا اسْمُكَ؟**» فَقَالَ: يَعِيشُ، فَقَالَ: «**احْلِبْهَا**».ا.هـ[1].

مِنْ حَقِّ الوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ :

إِنَّ مِنْ بَيْنِ الحُقُوقِ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الوَالِدِ لِوَلَدِهِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ فَيَتَخَيَّرَ لَهُ مِنْ الأَسْمَاءِ مَا لَهُ مَعْنًى حَسَنٌ وَيَبْتَعِدَ عَنْ الأَسْمَاءِ الخَبِيثَةِ السَّيِّئَةِ، فَهَذَا الرَّجُلُ اسْمُهُ حَـزْنٌ وَمَعْنَـى الحَـزْنُ الصَّـعْبُ فَـأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُغَيِّرَ اسْمَهُ لِيَكُونَ طَرِيقاً وَسَبِيلاً لِتَغَيُّرِ طِبَاعِـهِ، وَلَـوْ أَنَّهُ فَعَلَ لَتَغَيَّرَ فِعْلاً لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُغَيِّرَ الاسْمَ الَّذِي سَمَّتْهُ بِهِ أُمُّهُ، فَبَقِيَتْ الحُـزُونَةُ فِي أَوْلادِهِ وَأَحْفَادِهِ مُسْتَمِرَّةً بِسَبَبِ ذَلِـكَ الاسْـمِ السَّيِّئِ، وَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ قَبُولِ مَا يَأْمُرُ بِـهِ ﷺ وَعَـدَمِ

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٢/ ٣٠٧).

مُخَالَفَتِهِ، وَهَذَا مَـا أَحَسَّـهُ وَأَحَـسَّ بِآثَـارِهِ عَـلَى خُلُقِـهِ سَـعِيدُ بْـنُ المسَيَّبِ- رحمه الله- وَهُوَ مِنْ أَحْفَادِ حَزْنٍ الَّـذِي رَفَـضَ أَنْ يَقْبَـلَ الاسْمَ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ ﷺ، وَلَوْ أَنَّهُ رَضِيَ بِتَغْيِيرِ اسْمِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُ وَلَتَغَيَّرَ طَبْعُ الحُزُونَةِ وَالصُّعُوبَةِ فِي أَخْلاقِهِمْ إِلَى السُّهُولَةِ وَاللُّيُونَـةِ بِإِذْنِ الله- تَعَالَى.

تَغْيِيرُ الأَسْمَاءِ السَّيِّئَةِ مِنْ السُّنَّةِ :

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ تَغْيِيرُ كُلِّ اسْمٍ قَبِيحٍ إِلَى اسْمٍ حَسَنٍ وَجَمِيلٍ، فَلَقَدْ أَبْدَلَ الكَثِيرَ مِنْ الأَسْمَاءِ القَبِيحَةِ لِلأَشْخَاصِ وَالبُلْدَانِ وَسَمَّاها بِأَسْمَاءَ حَسَنَةٍ، كَتَغْيِيرِهِ اسْمَ عَاصِـيَةٍ إِلَى جَمِيلَـةٍ، وَحَـرْبٍ إِلَى سَلامٍ، وَحَزْنٍ إِلَى سَهْلٍ، وَأَبْدَلَ اسْمَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ عَبْدِ الكَعْبَةِ إِلَى عَبْدِ الله، وابْنِ عَوْفٍ مِنْ عَبْدِ الحَارِثِ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَبَرَّةَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ إِلَى زَيْنَبَ، وَبَنِي غَيَّانَ إِلَى بَنِي الرُّشْدَانِ، وَبَنِي الرِّيبَةِ إِلَى بَنِي الرُّشْدَةِ، وَمَدِينَةِ يَثْرِبَ إِلَى طَيْبَةَ، وَشِعْبِ الضَّلالَةِ إِلَى شِعْبِ الهُدَى.

أَحْسِنُوا أَسْمَاءَ أَوْلادِكُمْ لأَجْلِكُمْ :

إِنَّ أَثَرَ الاسْمِ كَأَثَرِ الرَّائِحَةِ المُنْتَشِرَةِ فِي المَكَـانِ إِنْ كَانَـتْ طَيِّبَـةً طَيَّبَتْ المَكَـانَ وَفَـاحَ عِطْرُهَـا وَرَحِيقُهَـا، وَإِنْ كَانَـتْ غَـيْرَ طَيِّبَـةٍ أَفْسَدَتْ رَائِحَةَ المَكَانِ وَأَنْتَنَتْهُ، فَالعِطْرُ الطَّيِّبُ يُؤَثِّرُ وَتَعْلَقُ رَائِحَتُهُ فِي الأَشْيَاءِ وَلَوْ كَانَ العِطْرُ قَلِيلاً أَوْ رَائِحَتُـهُ ضَـعِيفَةً، وَإِنْ كَانَـتْ

قَوِيَّةً أَنْعَشَتْ المَكَانَ .

وَالنَّفْسُ لَيْسَتْ أَقَلَّ تَأَثُّراً مِنَ المَكَانِ بَلَ النَّفْسُ أَكْثَرُ تَأَثُّراً مِنْ الأَمَاكِنِ لأَنَّهَا حَسَّاسَةٌ جِداً تَتَأَثَّرُ بِكُلِّ مَا حَوْلَهَا فَكَيْفَ لَوْ كَانَ الاسْمُ يَدُلُّ عَلَى نَفْسِ الإِنْسَانِ.

وَالبَشَرُ يُفْرِحُهُمْ الاسْمُ الجَمِيلُ وَيُسْعِدُهُمْ جِداً، وَهَذَا طَبْعُ البَشَرِ وَلِذَا فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ أَبٍ أَنْ يَنْتَقِي وَيَخْتَارَ أَفْضَلَ الأَسْمَاءِ وَأَجْمَلِهَا مَعْنًى لأَبْنَائِهِ وَلْيَنْتَقِ مِنْهَا مَا يَكُونَ لَهُ مَعْنًى طَيِّبٌ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَلَيْهِ فَسَيَكُونُ لِلاسْمِ تَأْثِيرٌ طَيِّبٌ عَلَى نُفُوسِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ.

أَمَّا الأَسْمَاءُ المُثِيرَةُ للسُّخْرِيَةِ أَوْ غَيْرُ المَأْلُوفَةِ دَلالَةً أَوْ لَفْظاً فَإِنَّهَا مُؤْذِيَةٌ لأَصْحَابِهَا وَلَهَا تَأْثِيرَاتٌ نَفْسِيَّةٌ سَيِّئَةٌ عَلَيْهِمْ، وَتَطْبَعُ حَيَاتَهُمْ بِطَابِعَ العُزْلَةِ وَعُقَدِ النَّقْصِ، وَأَحْيَاناً تَظْهَرُ بِعُدْوانِيَّةٍ تِجَاهَ الذَّاتِ أَوْ الأَهْلِ أَوْ تِجَاهَ المُجْتَمَعِ عُمُوماً، وَكَثِيراً مَا تَسَبَّبَتْ بَعْضُ الأَفْكَارِ الخُرَافِيَّةُ عِنْدَ بَعْضِ الأَهْلِ بِتَحْوِيلِ أَبْنَائِهِمْ رُوَّاداً دَائِمِينَ لِلْعِيادَاتِ النَّفْسِيَّةِ، أَوْ بِوُقُوفِهِمْ مُتَخَاصِمِينَ أَمَامَ المَحَاكِمِ المُخْتَصَّةِ بِسَبَبِ الأَسْمَاءِ المُبْتَذَلَةِ الَّتِي أَطْلَقُوهَا عَلَيْهِمْ، وَالأَلْقَابِ الخَسِيسَةِ الَّتِي لَقَّبُوهُمْ بِهَا.

وَاقِعُ تَسْمِيَاتِنَا اليَوْمَ :

إِنَّ المُتَفَحِّصَ لِلأَسْمَاءِ الَّتِي يُسَمِّي بِهَا الآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ فِي زَمَانِنَا لَيَجِدُ بُعْداً شَاسِعاً عَنْ سُنَّةِ النَّبِي ﷺ، وَيَجِدُ عُقُوقاً مِنْ قِبَلِ الوَالِدَيْنِ لأَبْنَائِهِمْ فَتَسْمَعُ أَسْمَاءَ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ وَلا مَعْنَى لَهَا فِي أَيِّ قَامُوسٍ مِنْ قَوَامِيسَ اللُّغَةِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهَا لَهَا مَعَانٍ سَيِّئَةٌ يَسْتَحْيِي الإِنْسَانُ مِنْ ذِكْرِهَا وَيَنْسَى الأَهْلُ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ قَدْ أَسَاؤُوا اسْتِخْدَامَ الحَقَّ الَّذِي لأَوْلادِهِمْ وَهُمْ مُوَكَّلُونَ بِهِ، فَاخْتِيَارُ الأَسْمَاءِ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الأَبْنَاءِ لا الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ، وَلَكِنَّهُمْ لِصِغَرِهِمْ وُكِّلَتِ المُهِمَّةُ لِمَنْ هُمْ أَشْفَقُ النَّاسِ عَلَيْهِم وَمَعَ ذَلِكَ تَرَى مَنْ يُسِيءُ القِيَامَ بِهَذَا الأَمْرِ فَلا يَخْتَارُ الاسْمَ الحَسَنَ ذَا المَعْنَى الطَّيِّبِ وَالدَّلالَةِ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةَ، وَبِالتَّالِي فَيَجِبُ عَلَى الأَهْلِ مِنْ بَابِ الأَمَانَةِ اخْتِيَارُ أَجْمَلِ الأَسْمَاءِ لأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ .

إِنَّ كَرَاهِيَةَ الأُمِّ لِلْوَلِيدِ بِسَبَبِ عُسْرِ الوِلادَةِ، أَوْ كَرَاهِيَةَ الوَالِدِ لأَبْنَاءِ الأُولَى، أَوْ الخَوفَ مِنْ عَدَمِ عَيْشِ الأَبْنَاءِ، مُبَرِّرَاتٌ لا تُقْبَلُ أَبَداً لِتَسْمِيَةِ الأَبْنَاءِ أَسْمَاءَ تَعِيسَةً مِثْلَ (تِبْنٍ) ومحصبق، ومطشر، ومَظْلُوم، وَغَيْرِهَا مِنْ الأَسْمَاءِ الَّتِي لا مَعْنًى لَهَا.

وَبَعْضُهُمْ يَهْرَعُ إِلَى تَسْمِيَةِ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ بِأَسْمَاءَ المَشَاهِيرِ مِنْ أَهْلِ

اللَّغْوِ وَالغِنَاءِ أَوْ يَخْتَارُ لَهُمْ أَسْمَاءً أَجْنَبِيَّةً تَبْتَعِدُ بِهِمْ كُلَّ البَعْدِ عَنْ دِينِهِمْ وَلُغَتِهِمْ وَهَوِيَّتِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يُحَاوِلُ جَاهِداً أَنْ يَأْتِي بِأَسْمَاءٍ غَرِيبَةٍ وَجَدِيدَةٍ لَمْ يُسْبَقْ لَهَا مِنْ قَبْلُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ دَلالَتَهَا أَوْ مَعْنَاهَا.

أيها الآباء :

إِنَّ أَوَّلَ هَدِيَّةٍ تُقَدِّمُونَهَا لأَبْنَائِكُمْ بَعْدَ وِلادَتِهِمْ هِيَ أَنْ تَخْتَارُوا لَهُمْ الأَسْمَاءَ الحَسَنَةَ، اخْتَارُوا لَهُمْ مِنْ أَسْمَاءَ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَأَسْمَاء الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاء وَقَادَةِ المُسْلِمِينَ، اخْتَارُوا لَهُمْ مِنْ الأَسْمَاءِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَكَارِمَ الأَخْلاقِ وَمَحَاسِنِهَا مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالرُّجُولَةِ وَغَيْرِهَا، فَبِذَلِكَ تُؤَدُّونَ الأَمَانَةَ الَّتِي فِي رِقَابِكُمْ وَبِذَلِكَ أَيْضاً تَتَّبِعُونَ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ.

الدروس المستفادة من الحكاية:

١ – إِنَّ لِلاسْمِ فِي حَيَاةِ أَيِّ فَرْدٍ تَأْثِيراً كَبِيراً فِي شَخْصِيَّتِهِ وَتَكْوِينِهِ وَتَطَوُّرِهِ وَتَفَاعُلِهِ مَعَ ذَاتِهِ وَمَعَ مُجْتَمَعِهِ.

٢ – مِنْ حَقِّ الوَلَدِ عَلَى وَالِدِهِ أَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ عِنْدَ وِلادَتِهِ.

٣– مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ تَغْيِيرِ كُلِّ اسْمٍ قَبِيحٍ إِلَى اسْمٍ حَسَنٍ وَجَمِيلٍ.

٤ – أَوَّلُ هَدِيَّةٍ يُقَدِّمُهَا الأَهْلُ لأَبْنَائِهِمْ بَعْدَ وِلادَتِهِمْ هِيَ أَنْ يَخْتَارُوا لَهُمْ الأَسْمَاءِ الحَسَنَةَ.

[١٢]

بِرَّ لِتبَرَّ .. لا تعُق فَتعَق

بِرَّ لِتُبَرَّ .. لا تَعُقَّ فَتُعَقّ

كَانَ يُونُسُ بْنُ الْخَيَّاطِ عَاقًّا لأَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ يَوْماً بَعْدَ مَا عَظُمَ عُقُوقُهُ لَهُ:

يُونُسُ قَلْبِي عَلَيْكَ يَلْتَهِفُ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى دُمُوعِهَا تَكِفُ

تُلْحِفُنِي كِسْوَةَ الْعُقُوقِ فَلا ... بَرِحَت مِنْهَا مَا عِشْتَ تَلْتَحِفُ

أُمِرْتَ بِالخفْضِ لِلْجَنَاحِ وَبِالرِّ ... فْقِ فَأَمْسَى يَعُوقُكَ الأَنَفُ

وَتِلْكَ وَاللهِ مِنْ زَبَانِيَةٍ ... إِنْ سُلِّطُوا فِي عَذَابِهِمْ عَنُفُوا

فَأَجَابَهُ ابْنُهُ يُونُسُ فَقَالَ:

أَصْبَحَ شَيْخِي يُزْرِي بِهِ الخَرَفُ ... مَا إِنَّ لَهُ حُرْمَةٌ وَلا نَصَفُ

صِفَاتُنَا فِي الْعُقُوقِ وَاحِدَةٌ ... مَا خِلْتُنَا فِي الْعُقُوقِ نَخْتَلِفُ

لَحَفْتَهُ سَالِفاً أَبَاكَ فَقَدْ ... أَصْبَحْتَ مِنِّي كَذَاكَ تَلْتَحِفُ[1]

قَلْبُ الأبِ قَلْبٌ عَظِيمٌ:

إِنَّ قَلْبَ أَيِّ أَبٍ خَلَقَهُ اللهُ- تعالى- مَفْطُورٌ عَلَى حُبِّ أَوْلادِهِ، سَوَاءَ كَانَ هَذَا الأَبُ مِنَ الإِنْسِ أَوِ الْجِنِّ أَوِ الْحَيَوَانَاتِ، وَإِنَّ دِينَ

(١) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (٢٠/ ٧) ومعجم الأدباء، لياقوت الحموي (٣/ ١٥).

الإِسْلامِ زَادَ عَلَى هَذِهِ الْـمَحَبَّةِ الْفِطْرِيَّةِ تَأْكِيداً وَتَوْثِيقاً، فَجَعَلَ لِلأَوْلادِ حُقُوقاً وَوَاجِبَاتٍ عَلَى وَالِدِيهِمْ مِنْ تَعْلِيمِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ- رضي الله عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1].

وَلَكِنْ أَعَظَمُ مَا يَحُزُّ فِي نَفْسِ أَيِّ أَبٍ أَنْ يُجَازَى مُقَابِلَ كُلِّ مَحَبَّتِهِ وَفِدَائِهِ وَتَضْحِيَاتِهِ لأَوْلادِهِ بِالإِسَاءَةِ وَالْعُقُوقِ مِنْهُمْ، وَكَمْ سَمِعْنَا وَقَرَأْنَا فِي قَصَصِ الأَوَّلِينَ، وَكَذَلِكَ مَا نَسْمَعُ بِهِ وَنقْرَأُ عَنْ قَصَصِ الْـمُعَاصِرِينَ مِنْ عُقُوقِ الأَبْنَاءِ لآبَائِهِمْ، وَلَكِنْ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ نَرَى قَلْبَ الأَبِ فِي أَغْلَبِ الأَحْيَانِ يَبْكِي وَيَئِنُّ وَيَتَفَطَّرُ حُزْناً وَأَسًى عَلَى مَا يُلاقِيهِ مِنْ أَبْنَائِهِ، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يَنْتَظِرُ اللَّحْظَةَ الَّتِي يَرْجِعُ فِيهَا أَبْنَاؤُهُ إِلَيْهِ لِيَحْضُنَهُمْ وَيَضُمَّهُمْ إِلَيْهِ.

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

فَهَذَا أَبُو يُونُسَ يَقُولُ لابْنِهِ الَّذِي عَقَّهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ :

يُونُسُ قَلْبِي عَلَيْكَ يَلْتَهِفُ وَالعَيْنُ عَبْرَى دُمُوعهَا تَكِفُ

فَهُوَ عَبَّرَ لابْنِهِ عَنْ مَا يَدُورُ فِي قَلْبِهِ مِنْ لَهْفَةٍ وَحَنَانٍ، وَأَفْصَحَ لَهُ عَنْ مَا يَنْحَدِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ مِنْ دُمُوعٍ حُزْناً وَأَسًى جَرَّاءَ مَا يَلْقَاهُ مِنِ ابْنِهِ، لَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَعَ فِي خَطَإٍ كَبِيرٍ كَثِيراً مَا يَقَعُ فِيهِ الآبَاءُ وَالأُمَّهَاتُ فِي زَمَانِنَا، وَهُوَ الدُّعَاءَ عَلَى أَبْنَائِهِمْ بِالشَّرِّ، وَهَذَا مَا نَهَى عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ وَلا تَدعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ، وَلا تَدْعُوا عَلَى أَموَالِكُمْ، لا تُوافِقُوا مِنَ الله سَاعَةً يُسأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»[1].

فَالدُّعَاءُ عَلَى الأَولادِ رُبَّمَا يَكُونُ سَبَباً فِي زِيَادَةِ عُقُوقِهِمْ، وَفَسَادِهِمْ. وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ المبَارَكِ يَشْكُو إِلَيْهِ وَلَدَهُ، فَقَالَ: أَدَعَوْتَ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ.

وَلا تقلْ لهمَا أفٍ وَلا تنهرْهمَا :

وَإِنَّنَا عِنْدَمَا نَقْرَأُ جَوَابَ يُونُسَ لأَبِيهِ نَجِدُ جُرْأَةً وَقِلَّةَ احْتِرَامٍ مِنْ يُونُسَ لأَبِيهِ، وَهَذَا الأَمْرُ وَلِلأَسَفِ يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَبْنَائِنَا فِي

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

هَذَا الزَّمَانِ؛ فَهُمْ يَرُدُّونَ الكَلامَ عَلَى آبَائِهِمْ دُونَ أَيِّ احْتِرَامٍ أَوْ تَقْدِيرٍ أَوْ تَأَدُّبٍ مَعَهُمْ. وَهَذَا خِلافُ مَا أَمَرَنَا بِهِ دِينُنَا؛ فَهُوَ يَأْمُرُنَا بِالإِحْسَانِ إِلَى وَالِدَيْنَا مَهْمَا أَسَاءَا مَعَنَا، وَحَتَّى لَوْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ، فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ بِبِرِّهِمَا وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا وَطَاعَةِ أَمْرِهِمَا، إِلا إِذَا أَمَرَانَا بِمَعْصِيَةِ الله تعالى، فَعِنْدَهَا لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

وَكَذَلِكَ فَلا يَجُوزُ لِلأَبْنَاءِ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى آبَائِهِمْ بِكَلامٍ سَيِّءٍ أَوْ بَذِيءٍ، بَلْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1].

كَمَا تدِينُ تدَانُ :

إِنَّنَا مَعَ اعْتِرَاضِنَا عَلَى جَوَابِ يُونُسَ لأَبِيهِ وَعَدَمِ رِضَانَا بِذَلِكَ، لَكِنَّهُ دَلَّ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَلا وَهُوَ أَنَّ بِرَّ أَبْنَائِكَ بِكَ يَبْدَأُ قَبْلَ وِلادَتِهِمْ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ، وَلِذَلِكَ يُمْكِنُكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ بِرِّكَ بِهِ وَمَعَامَلَتِكَ لَهُ.

فَالْقِصَّةُ تُذَكِّرُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا وَمِنَ الأَبْنَاءِ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَمَنْ زَرَعَ حَصَدَ، إِذَا أَحْسَنَ الْمَرْءُ أُحْسِنَ إِلَيْهِ، وَإِذَا

(١) الإسراء: ٢٣.

أَعَانَ أُعِينَ، وَإِذَا أَعْطَى أُعْطِيَ، وَكَذَلِكَ مَنْ ظَلَمَ تَعَرَّضَ لِلظُّلْمِ، وَمَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ عَقَّهُ أَبْنَاؤُهُ. فَكُلُّ عَمَلٍ لَهُ جَزَاءٌ رُبَّمَا يَكُونُ مُعَجَّلاً وَرُبَّمَا يَكُونُ مُؤَجَّلاً، وَإِنَّ عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ هُوَ مِنْ أَسْرَعِ الأَعْمَالِ الَّتِي يُعَجَّلُ جَزَاؤُهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ، قَالَ ﷺ: «**بَابَانِ مُعَجَّلانِ عُقُوبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا: الْبَغْيُ وَالْعُقُوقُ**»[1].

وَمِمَّا يُذْكَرُ مِنَ الْقَصَصِ فِي ذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً خَرَجَ بِوَالِدِهِ إِلَى مَكَانٍ خَالٍ لِيَذْبَحَهُ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ مُعَيَّنٍ أَنْزَلَهُ هُنَاكَ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ بِي؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَذْبَحَكَ. قَالَ: يَا بُنَيَّ هَلْ هَذَا جَزَاءُ الإِحْسَانِ؟ قَالَ الابْنُ: لا بُدَّ أَنْ أَذْبَحَكَ فَقَدْ أَسَأْتَنِي. فَقَالَ الأَبُ: يَا بُنَيَّ إِنْ أَبَيْتَ إِلا أَنْ تَذْبَحَنِي فَاذْبَحْنِي فِي مَكَانِ كَذَا، فَإِنِّي ذَبَحْتُ أَبِي هُنَاكَ.

فَكَلامُ يُونُسَ لأَبِيهِ وَعُقُوقُهُ لَهُ كَانَ مَبْدَؤُهُ عُقُوقَ وَالِدِهِ لِجَدِّهِ.

عَامِلْ أَبَاكَ كَمَا تُرِيدُ أَنْ يُعَامِلَكَ ابْنُكَ:

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

مَنْ أَرَادَ أَنْ يُعَامِلَهُ أَبْنَاؤُهُ بِالْبِرِّ وَالإِحْسَانِ وَالطَّاعَةِ، فَالأَمْرُ بِيَدِهِ، وَالاخْتِيَارُ أَمَامَهُ، وَهُوَ أَنْ يَبَرَّ وَالِدَيْهِ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمَا.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٣٥٠)، وصححه الذهبي.

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ: إِنَّ الأَبَ جَوْهَرَةٌ كَبِيرَةٌ يَشِعُّ بَرِيقُهَا وَيَفِيضُ حَنَانُهَا عَلَى أَوْلادِهِ؛ لِيُنِيرَ لَهُمْ دَرْبَ الْحَيَاةِ، وَيُسَهِّلَ عَلَيْهِمْ مَشَاقَّهَا وَمَفَازَاتِهَا. حَتَّى لَوْ أَخْطَأَ الابْنُ فِي حَقِّهِ تَرَى قَلْبَهُ مَلِيئاً بِالْعَطْفِ وَالْحَنَانِ وَالشَّفَقَةِ، لا يَكْرَهُ، لا يَنْتَقِمُ، بَلْ دَائِماً ذِرَاعَاهُ مَفْتُوحَتَانِ، وَقَلْبُهُ مَفْتُوحٌ بِقَبُولِ ابْنِهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ، وَدُونَ أَيِّ اسْتِئْذَانٍ. فَبَرُّوا أَبْنَاءَكُمْ وَأَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ يَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ وَيُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ.

الأمور المستفادة من القصة:

١ - حُبُّ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ حُبٌّ عَظِيمٌ.

٢ - قَلْبُ الأَبِ مُسْتَعِدٌّ لِلْعَفْوِ عَنِ ابْنِهِ الْعَاقِّ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَعُودُ فِيهِ إِلَيْهِ.

٣ - لا يَنْبَغِي لِلأَبِ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَوْلادِهِ، بَلْ يَدْعُو لَهُمْ.

٤ - لا يَجُوزُ رَدُّ الْكَلامِ عَلَى الْوَالِدِ رَداً سَيِّئاً وَبَذِيئاً. كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَبَرُّ تُبَرُّ، وَكَمَا تَعُقُّ تُعَقُّ.



[١٣]

بُعْدُ الآبَاءِ

وَفِرَاقُ الأبْناءِ

بُعْدُ الآبَاءِ وَفِرَاقُ الأَبْنَاءِ

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِصَامٍ – جَبْرَ – قَالَ :

خَرَجَ أَبِي عَلَى طَرِيقِ الكُوفَةِ وَهْوَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ قَاصِداً إِلَى دَارِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ(١)، فَلَقِيَهُ مخلّفوه وَحَمَّلُوُه رَسَائِلَ، وَكَانَ ابْنُهُ قَدْ تَحرّكَ، وَبَلَغَ نَحوَ عَشْرِ سِنِينَ، فَلَمّا وَدَّعَهُ جَبْرُ قَالَ لَهُ الصَّبِيُّ : اقْرَأْ مِنِّي السَّلامَ عَلَى أَبِي وَقُلْ لَهُ : أَقْدِمْ فَإِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ. فَلَمّا وافَى جَبْرُ مَكَّةَ قَضَى الطَّوافَ وَصَارَ إِلَى سُفْيَانَ وَهُوَ يُحدِّثُ النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى جَبْرَ، أَنِسَ إِلَيْهِ، وَكَانَ يَسْأَلُهُ حَتَّى أَدَّى إِلَيْهِ مَا قَالَ مخلّفوه، وَمَا قَالَ ابْنُهُ، فَقَامَ سُفْيَانُ مِنَ المَجْلِسِ، وَطَافَ بالبَيْتِ وَوَدَّعَ، وَقَالَ لِجَبْرَ: يَا عِصَامَ رُدَّ عنّي هَؤُلاءِ القَوْمَ فَإِنِّي لا أَحَدّثُهُمْ اليَوْمَ فَصَرَفَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ لَهُ جَبْرُ : أَيْنَ تَمْضِي؟ قَالَ : نَحْوَ المَنْزِلِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. وقال عباس الدوري: رأيت يحيى بن معين لا يقدم على سفيان أحدا في زمانه، في الفقه والحديث والزهد وكل شيء. توفى سنة ١٦١هـ . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩) وما بعدها.

فَقَالَ لَهُ: بَعْدَ غَدٍ التَّرْوِيَةُ، وَبَعْدَهُ يَوْمُ الحَجِّ الأَكْبرِ وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَتَمْضِي وَتَدَعَهُ، وَهَؤُلاءِ النَّاسُ يَأْخُذُونَ عَنْكَ العِلْمَ، فَيَبْقَى لَكَ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِشَيْءٍ مِنْهُ .

فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْكَ، وَلَكِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِفَرْضٍ وَاجِبٍ أَنْ أَقْضِيهُ، وَتَأْمُرُنِي أَنْ أُقِيمَ عَلَى نَافِلَةٍ وَأُضيِّعُ الفَرْضَ، وَإِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَى ابْنِي، فَإِذَا قُمْتَ فِي المَوْقِفِ وَالمَشَاهِدِ ادْعُ لَنَا، وإِذَا خَرَجْتَ فَاجْعَلْنَا طَرِيقَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَخَرَجَ بِلا زَادٍ وَلا صَاحِبٍ .

قَالَ جَبْرُ: فَسَأَلْتُ عَنْهُ نَفَراً، فَأَخْبَرُونِي عَنْهُ أَنَّهُ وَافَاهَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَصَلَّى العِيدَ بِالْكُوفَةِ، وَلَقِيَ ابْنَهُ بِالْمُصَلّى، وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ– رَحِمَهُ اللهُ(١).

الأُسْرَةُ كِيَانٌ وُجِدَ لِيَتَمَاسَكَ :

إِنَّ أَيَّ مُجْتَمَعٍ مِنَ المُجْتَمَعَاتِ إِنَّمَا يَتكَوَّنُ مِنْ أُسَرٍ وَعَائِلاَتٍ يَنْضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى البَعْضِ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ فَيُنْشِئُونَ مُجْتَمَعاً، فَالأُسْرَةُ هِيَ النَّوَاةُ الأُولَى لِلمُجْتَمَعِ، وَبِقَدْرِ تَمَاسُكِهَا وَتَرَابُطِهَا يَتَرَابَطُ المُجْتَمَعُ، وَبِقَدْرِ قُوَّتِهَا وَقُدْرَتِهَا تَظْهَرُ قُوَّةُ المُجْتَمَعِ وَقُدْرَتُهِ، وَكَذَلِكَ العَكْسُ تَمَاماً فَعِنْدَمَا تَتَفَكَّكُ الأُسَرُ، وَتَتَمَزَّقُ رَوَابِطُهَا

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٧/ ٧٤، ٧٥) بتصرف.

وصِلاتُهَا، يَكُونُ ذَلِكَ سَبَباً مُقْنِعاً لِتَفَكُّكِ الْمُجْتَمَعِ وَضَعْفِهِ .

فَالأُسْرَةُ كِيَانٌ وَاحِدٌ وُجِدَ لِيَبْقَى مُتَمَاسِكاً مُتَرَابِطاً مِنْ أَوَّلِ يَوْم وُجِدَ فِيهِ، وَالأَسْرَةُ بُنْيَانٌ شُيِّدَ وَعُمِّرَ لِيَبْقَى مُتَرَاصّاً كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً. فَلِذَا لا بُدَّ لِكُلِّ أَرْكَانِ الأُسْرَةِ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ وأَوْلادٍ أَنْ يَبْقُوا مَعَ بَعْضِهِمْ البَعْضَ رُوحاً وَفِكْراً وَجَسَداً.

التَّرْبِيَةُ لَيْسَتْ طَعَاماً وَشَرَاباً :

بَعْضُ الآبَاءِ والأُمَّهَاتِ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ إِنَّمَا هِيَ أَنْ يُطْعِمُوا أَوْلادَهُمْ أَلَذَّ الطَّعَامِ، وَيُلْبِسُوهُمْ أَحْسَنَ الثِّيَابِ، وَيُغْدِقُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الأَمْوَالِ كَلَّ مَا يَرِيدُونَ وَيَبْتَغُونَ. هَذَا مَفْهُومُ التَّرْبِيَةِ عِنْدَهُمْ فَحَسْبُ. أَمَّا تَعْلِيمُهُمْ وَتَأْدِيبُهُمْ وَمَعْرِفَةُ مُشْكِلاتِهِمْ فَتَرَاهُمْ مَشْغُولِينَ عَنْ ذَلِكَ بِالانْهِمَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالبَحْثِ عَنْ الرِّزْقِ فَهَؤُلاءِ جَعَلُوا أَوْلادَهُمْ أَيْتَاماً قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا.

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له أما تخلت أو أبا مشغولا

وَلَنْ تَتَحَقَّقَ الحَاجَاتُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْ قَلْبِ هَذَا الطِّفْلِ إِلا بِكَثْرَةِ مُدَاوَمَتِهِ مَعَ وَالِدِهِ، وَقَدْ يفْقِدُ الطِّفْلُ مَعَانِي الرُّجُولَةِ والذُّكُورَةِ نَتِيجَةَ نَقْصِ المَنَاعَةِ العَاطِفِيَّةِ الأَبَوِيَّةِ.

حَقُّ الأَوْلادِ حَقٌّ عَظِيمٌ :

إِنَّ حَقَّ الأَبْنَاءِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ حَقٌّ عَظِيمٌ وَيَجِبُ أَنْ لا يَضِيعَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُرْشِدُوهُمْ وَيَدِلُّوهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي يُوَصِّلُهُمْ إِلَى الجَنَّةِ وَيَقِيهِمُ النَّارَ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[1] .

إِنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ – رحمه الله – فِي هَذِهِ القِصَّةِ يُنَبِّهُ كُلَّ الآبَاءِ أَنَّ غِيَابَهُمْ عَنْ أَبْنَائِهِمْ أَمْرٌ خَطِيرٌ، فَقَضِيَّةُ غِيَابِ الآبَاءِ عَنِ المَنْزِلِ لِسَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ أَوْ لأيامٍ وَأَسَابِيعَ لَهُ أَثَرٌ خَطِيرٌ عَلَى نَفْسِيَّةِ الطِّفْلِ، فَالأَبُ هُوَ التَّرْجَمَةُ الحَرْفِيَّةُ لِقَصِيدَةِ الحُبِّ وَالحَنَانِ، وَيُعْتَبَرُ بِالنِّسْبَةِ للطِّفْلِ مَصْدراً لِلأَمْنِ وَالحِمَايَةِ، فَهُوَ رُبَّانُ سَفِينَةِ الأُسْرَةِ يَقُودُهَا بِفِطْنَتِهِ وَحِكْمَتِهِ لِيُوَصِّلَ أَبْنَاءَهُ إِلَى شَوَاطِئِ الدِّفْءِ والأَمَانِ، ويَضَعَهُمْ فِي بَرِّ الثَّقَافَةِ الفِكْرِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ والأَخْلاقِيَّةِ، وَيُضَحِّي بِكُلِّ غَالٍ وَرَخِيصٍ مِنْ أَجْلِ هَذَا الهَدَفِ العَظِيمِ وَهَذِهِ الغَايَةِ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةِ.

وَهَا هُوَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ وَيُعَلِّمُهُمْ وَكَانَ

---

(١) التحريم: ٦.

عَلَى بُعْدِ أَيَّام قَلائِلَ مِنْ يَوْم عَرَفَةَ والنَّاسُ قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عِميقٍ إِلَى بَيْتِ الله الحَرَام لأَدَاءِ شَعِيرَةِ الحَجِّ إِذَا بِالنِّدَاءِ يَصِلُهُ عَبْرَ أَحَدِ القَادِمِينَ إِلَى بَيْتِ الله الحَرَامِ مِنِ ابْنِهِ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ العَاشِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ وَيَقُولُ لَهُ فِي نِدَائِهِ وَرِسَالَتِهِ: (أَقْدِمْ إِنِّي مُشْتَاقٌ إِلَيْكَ) إِذَا بِهِ يَتْرُكُ الدُّرُوسَ وَالتَّعْلِيمَ وَيَتْرُكُ الحَجَّ النَّافِلَةَ وَيُخَلِّفَ كُلَّ شَيْءٍ وَيُلَبِّي نَدَاءَ ابْنِهِ الَّذِي اشْتَاقَ إِلَيْهِ، وَيُبَيِّنُ لِمَنْ اسْتَغْرَبَ مِنْهُ ذَلِكَ أَنَّ تَلْبِيَةَ نِدَاءِ الأَبْنَاءِ وَاجِبُ الإِجَابَةِ بِيْنَمَا التَّعْلِيمُ وَالتَّدْرِيسُ وَالحَجُّ مَرَّةً ثَانِيةً إِنَّمَا هِيَ نَوَافِلُ يُمْكِنُ تَأْجِيلُهَا بِخَلافِ تَرْبِيَةِ الأَبْنَاءِ.

أَمَّا لَوْ أَتَيْنَا إِلَى وَاقِعِنَا وَحَاضِرِنَا فَكَمْ وَكَم مِنَ الأَبْنَاءِ والبَنَاتِ لِسَانُ حَالِهِمْ وَوَاقِعُهِمْ يُنَادِي وَيَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ (أَقْدِمْ فَإِنِّي أَشْتَاقُ إِلَيْكَ) لَكِنْ لَيْسَ هُناكَ مُجِيبٌ لِنِدَائِهِمْ، وَلا مُلَبٍّ لَدَعْوَتِهِمْ.

كَثُرَ الحَاضِرُونَ الغَائِبُونَ :

إِنَّ الوَاحِدَ مِنَّا رُبَّمَا يَرَى كَثِيراً مِنَ الأَبْنَاءِ مَعَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَأُمَّهَاتُهُمْ يَعِيشُونَ مَعَهُمْ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ مَعَهُمْ، لَكِنَّهُمْ مُنْشَغِلُونَ عَنْ سَمَاعِ شَكْوَاهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، بِالسَّهَرِ وَاللَّعِبِ وَالسَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَبِالانْشِغَالِ بِأُمُورِ العَمَلِ وَالمَالِ، وَمَشَاغِلَ الدُّنْيَا الَّتِي لا تَنْتَهِي.

أَعْذَارٌ لا تُقْبَلُ :

رُبَّمَا يَتَذَرَّعُ كَثِيرٌ مِمَّنْ يُسَافِرُونَ وَيَتَغَرَّبُونَ بَحْثاً عَنْ الرِّزْقِ لأَوْلادِهِمْ بِعَدَمِ مَقْدِرَتِهِمْ عَلَى العَيْشِ مَعَهُمْ وَعَدَمِ اسْتِطَاعَتِهِ اسْتِقْدَامَهُمْ لِلْعَيْشِ مَعَهُ إِلا أَنَّ فِي ذَلِكَ ضَرَراً كَبِيراً عَلَى أَوْلادِهِ فَغُرْبَتُهُ وَبُعْدُهُ عَنْهُمْ يَجْعَلُهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ مُتَنَفَّسٍ لَهُمْ، وَتَكُونُ المَادَّةُ وَالأَمْوَالُ هِيَ قَائِدَهُمْ فِي ظَلِّ غِيابِ أَيِّ تَنْظِيمِ لِحَيَاتِهِمْ، فَتَرَاهُمْ يَخْرُجُونَ فَاقِدِي الثِّقَةِ فِيمَنْ حَوْلَهُمْ، وَيَسْهُلُ انْسِياقُهُمْ وَرَاءَ الغَيْرِ لِسَبَبِ عَدَمِ وُجُودِ قُدْوَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا وَيَقْتَدُونَ بِهَا.

فَلِذَا عَلَى كُلِّ مَنْ أَجْبَرَتْهُ ظُرُوفُ العَيْشِ عَلَى السَّفَرِ وَالبُعْدِ عَنْ أَوْلادِهِ أَنْ يَتَأَكَّدَ قَبْلَ سَفَرِهِ أَنَّهُ قَدْ زَرَعَ فِيهِمْ كُلَّ القِيَمِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ يَحْيُوا الحَيَاةَ الطَّبِيعِيَّةَ فِي كُلِّ مَجَالاتِهَا وَجَوَانِبِهَا الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ وَالتَّرْفِيهِيَّةِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُوطِّنَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ عَلَى تَلْبِيَةِ نِدَاءِ أَوْلادِهِ كُلَّمَا نَادَتْهُ مَشَاكِلُهُمْ وَظُرُوفُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ وَأَنْ يَدَعَ كُلَّ أَمْرٍ رُبَّمَا يَشْغَلُهُ عَنْ ذَلِكَ.

أيها الآباء:

إِنَّ تَرْبِيَةَ الأَبْنَاءِ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ وَعُرْفِيٌّ وَأَخْلاقِيٌّ، بِيْنَمَا الانْشِغَالُ بِتَكْثِيرِ الأَمْوَالِ وَمُضَاعَفَتِهَا أَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَكِنْ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، فَيَجِبُ تَرْتِيبُ الأَوْلَوِيَّاتِ.

إِنَّ الاسْتِثْمَارَ الحَقِيقِيَّ يَكُونُ فِي أَبْنَائِكُمْ، وَلَيْسَ الاسْتِثْمَارُ فِي الأُمُورِ المادِّيَّةِ فَحَسْبُ. وَإِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ كَفِيلٌ بِإِظْهَارِ مَعَالِمِ هَذِهِ القَضِيَّةِ، فَكَمْ مِنَ الآبَاءِ وَجَدُوا أَنَّ كُلَّ الأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ الَّتِي جَمَعُوهَا لا تُغَطِّي عَيْباً وَاحِداً مِنَ العُيُوبِ الَّتِي نَشَأَتْ بِسَبَبِ غِيَابِهِمْ عَنْ المَنْزِلِ.

أيها الأب:

لا مَانِعَ مِنْ الخُرُوجِ مَعَ أَصْدِقَائِكَ، وَلا مَانِعَ مِنَ انْشِغَالِكَ بِوَظِيفَتِكَ وَأَعْمَالِكَ، وَلا مَانِعَ مِنَ السَّفَرِ عِنْدَمَا تُجْبِرُكَ الظُّرُوفُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَعْطِ أَفْرَادَ أُسْرَتِكَ حَقَّهُمْ، وَتَوَاصَلْ مَعَهُمْ بِالسُّؤَالِ عَنْهُمْ، احْتَضِنْهُمْ وَأَشْعِرْهُمْ بِالأُبُوَّةِ فَهِيَ لَيْسَتْ مَالاً يُدْفَعُ، وَلا كَنْزاً يُجْمَعُ، وَلَكِنَّهَا سَعَادَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَتَعَاوُنٌ وَاسْتِقْرَارٌ، وَشَرَاكَةٌ وَمَدْرَسَةٌ يَتَخَرَّجُ مِنْهَا فَلَذَاتُ أَكْبَادِنَا.

الأبُ يتفطَّرُ قَلْبُهُ لبُعْد أبْنَائه :

وَإِنَّ الفِرَاقَ لَيَصْعُبُ كَذَلِكَ عَلَى الأَبِ عِنْدَ فِرَاقِ أَبْنَائِهِ فَتَرَى الدُّمُوعَ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهَا غَارَتْ إِذَا بِهَا تَتَدَفَّقُ، وَتُعِيدُ حُفَرَ مَمَرَّاتِهَا القَدِيمَةَ، لا بَلْ تُنْشِئُ مَمَرَّاتٍ أُخْرَى لِشِدَّةِ غَزَارَتِهَا وَتَدَفُّقِهَا.

وَكَمْ يَحْزَنُ الأَبَوَانِ وَيَتَجَرَّعَانِ الغُصَصَ لِفِرَاقِ أَوْلادِهِمَا، وَلَوْ كَانَ فِرَاقاً إِلَى أَجَلٍ.

لَوْ كَانَ يَدْرِي الابْنُ أَيَّةَ غُصَّةٍ ... يَتَجَرَّعُ الأَبَوَانِ عِنْدَ فِرَاقِهِ

لَتَبَدَّلَ الطَّبْعُ الغَلِيظُ بِرِقَّةٍ ... وَجَزَاهُمَا بِالعَطْفِ مِنْ أَخْلاقِهِ

إِنَّ الدُّمُوعَ الَّتِي تَتَرَقْرَقُ مِنْ عَيْنَيِ الأَبِ وَهُوَ يُوَدِّعُ أَوْلادَهُ وَقَدْ رَكِبَ مُسَافِراً أَوْ هُمْ رَكِبُوا مُسَافِرِينَ، وَهُوَ الَّذِي تَشِحُّ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ إِلا قَلِيلاً تَنْطِقُ شِعْراً، وَتَكْتُبُ نَثْراً، وَتُتَرْجِمُ عَنْ قَلْبِهِ المُتَأَجِّجِ بِعَاطِفَةِ الأُبُوَّةِ فَتَقُولُ بِلِسَانِهِ :

قَدْ يَعْجَبُ العُذَّالُ مِنْ رَجُلٍ ... يَبْكِي وَلَوْ لَمْ أَبْكِ فَالْعَجَبُ

هَيْهَاتَ مَا كُلُّ البُكَا خَوَرٌ ... إِنِّي وبِي عَزْمُ الرِّجَالِ أَبُ

وَإِنَّ لِسَانَ حَالِ كُلِّ أَبٍ يَتَكَلَّمُ قَبْلَ لِسَانِ شِعْرِهِ وَمَقَالِهِ، فَحَالُهُ تَتَكَلَّمُ بِأَنِينٍ، وَتَتَحَدَّثُ بِحُرْقَةٍ وَحَنِينٍ فَيَقُولُ: إِنَّ الوَدَاعَ صَعْبٌ وَلَوْ إِلَى الغَدِ، فَكَيْفَ إِنْ كَانَ المُوَدَّعُ وَلَدًا حَبِيباً، فَكَيْفَ إِنْ كَانُوا أَوْلادًا؟ أَنْتُمْ أَوْلادِي، وَأَبْنَائِي، وَثَمَرَةُ فُؤَادِي وَفَلْذَةُ كَبِدِي، لا أَسُوقُهَا كَأَنَّهَا كَلِمَةٌ تُقَالُ، وَلَكِنْ تَنْطِقُ بِهَا كُلُّ جَارِحَةٍ فِي، وَأُحِسُّهَا مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي!

إِنِّي أُفَكِّرُ فِيكُمْ دَائِمًا وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ؟ إِنِّي آلَمُ إِذَا تَأَلَّمَ أَحَدُكُمْ، وَأَثُورُ إِذَا تَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْكُمْ؟

لا أَنْسَاكُمْ وَأَنْتُمْ تَدْعُونَنِي لأُشَارِكَكُمْ فِي أَلْعَابِكُمْ، وَلا يَغِيبُ

عَنِّي كَيْفَ تَقُصُّونَ عَلَيَّ أَخْبَارَكُمْ وَتَبُثُّونَنِي أَحْزَانَكُمْ، وَتُنَبِّؤُنَنِي بِأَسْرَارِكُمْ، وَتَشْكُونَ إِلَيَّ مَا يُصِيبُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ. أَنْتُمْ أَوْلادِي، فَهَلْ رَأَيْتُمْ أَبًا يُوَدِّعُ أَوْلادَهُ ثُمَّ يَمْلُكُ نَفْسَهُ أَنْ تَسِيلَ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ؟

الدروس المستفادة من القصة:

١- الأُسْرَةُ لِكَيْ تَعِيشَ حَيَاتَهَا وَتُحَقِّقَ أَهْدَافَهَا فَلا بُدَّ مِنْ تَرَابُطٍ وَتَمَاسُكٍ بَيْنَ كُلِّ أَفْرَادِهَا.

٢- تَرْبِيَةُ الأَبْنَاءِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، بَلْ مَسْؤُولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ تَشْمَلُ الرُّوحَ وَالجَسَدَ، وَيَنْبَنِي عَلَيْهَا أَجْرٌ وَثَوَابٌ، أَو عِقَابٌ وَحِسَابٌ.

٣- الأَبُ رُبَّانُ سَفِينَةِ الأُسْرَةِ فَلا بُدَّ مِنْ اطِّلاعِهِ وَعِلْمِهِ بِكُلِّ مَا فِيهَا وَبِكُلِّ مَا يُحِيطُ بِهَا، لِكَيْ يُوَصِّلَهَا إِلَى شَاطِئِ الأَمَانِ .

٤- الغِيَابُ لَيْسَ غِيَابَ الجَسَدِ فَحَسْبُ، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ الجَسَدُ حَاضِراً لَكِنَّ الفِكْرَ هُوَ الغَائِبُ المُسَافِرُ.

٥- لا بُدَّ مِنْ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ الأَبْنَاءِ عِنْدَمَا تَهْمِسُ أَرْوَاحُهُمْ قَبْلَ أَنْ تَنْطِقَ شِفَاهُهُمْ.

[١٤]

عُرْوَةُ الدِّينِ

هِيَ العُرْوَةُ الوُثقَى

عُرْوَةُ الدِّينِ هِيَ العُرْوَةُ الوُثْقَى

يَقُولُ اللهُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مُبَيِّناً كَيْفَ دَعَا إِبْرَاهِيمُ- عليه السلام- أَبَاهُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[1].

كُلُ العُرَى تنفصمُ أمامَ العُرْوَةِ الوُثْقَى:

إِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ القُرْآنِيَّةَ العَظِيمَةَ تُعْطِينَا دَلالَةً مُهِمَّةً جِداً يَجِبُ أَنْ نَقِفَ عِنْدَهَا، فَهِيَ تَجْعَلُنَا نَسْأَلُ أَنْفُسَنَا جَمِيعاً:

هَلْ صِلَةُ النَّسَبِ تُفِيدُ؟!. هَلْ رَابِطَةُ القَرَابَةِ تُفِيدُ؟!. هَلْ عُرَى القَوْمِيَّةِ أَوْ انْتِمَاءَاتُ الأَرْضِ تُفِيدُ؟!. وَهَلْ رَابِطَةُ اللُّغَةِ أَوْ غَيْرُهَا مِنْ الرَّوَابِطِ تُفِيدُ أَحَداً؟

لَوْ كَانَتْ تُفِيدُ لأَفَادَتْ أَبَا إِبْرَاهِيمَ- عليه السلام، لَوْ كَانَتْ

(١) مريم: ٤١-٤٥.

تَنْفَعُ لَنَفَعَتْ ابْنَ نُوحٍ- عليه السلام، لَكِنْ لما اخْتَلَفَتِ العَقِيدَةُ، وَلَمَّا تَبَايَنَتْ، انْقَطَعَتْ هَذِهِ الرَّوَابِطُ جَمِيعاً، وَأَصْبَحَ الَّذِي يُؤَلِّفُ وَيَجْمَعُ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ كَلِمَةُ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَهِيَ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَهُمْ.

أَمَّا الرَّوَابِطُ الأُخْرَى مِنَ اللُّغَةِ وَالدَّمِ وَالنَّسَبِ أَوْ الوَطَنِ، أو غير ذَلِكَ فَإِنَّهَا رَوَابِطُ مُؤَقَّتَةٌ، وَلَيْسَتْ بِشَيْءٍ عِنْدَ الله أَبَداً، وَاللهُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وَيَقُولُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ:

إِنَّ هَذِهِ الحِكَايَةَ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا تُعَلِّمُ كُلَّ ابْنٍ مُؤْمِنٍ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ أَبِيهِ وَكَيْفَ يَنْصَحُهُ مَعَ بَقَاءِ الاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ لِمَقَامِ الأُبُوَّةِ النَّسَبِيَّةِ.

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) الممتحنة: ٣.

فَإِبْرَاهِيمُ ـ عليه السلام ـ عَلَّمَ كُلَّ الأَبْنَاءِ أَنْ يَنْصَحُوا آبَاءَهُمْ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ وَحُباً لَهُمْ، وَأَلاَّ يَنْسَى الابْنُ أَنَّهُ يَنْصَحُ أَبَاهُ، فَبَدَأَ- عليه السلام- بِأُسْلُوبٍ رَقِيقٍ لَطِيفٍ يُخَاطِبُ بِهِ أَبَاهُ وَيَقُولُ لَهُ: إِنَّنِي ابْنُكَ، وَأَنَا أَصْغَرُ مِنْكَ، و﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾. إِنَّنِي رَسُولٌ مِنْ اللهِ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِنَّنِي قَدْ جَاءَنِي مِنْ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ، فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَيُحَاوِلُ، وَيُحَاوِلُ، وَيَقُولُ لأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ عِبَادَتَهَا عِبَادَةٌ لِلشَّيْطَانِ، و﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

وَبِهَذِهِ الكَلِمَاتِ الرَّقِيقَةِ، وَبِهَذِهِ الأَسَالِيبِ العِلْمِيَّةِ الْمُقْنِعَةِ يَظَلُّ إِبْرَاهِيمُ يَدْعُو أَبَاهُ، يَدْعُوْه إِلَى الإِسْلامِ.

وَلَكِنْ كَيْفَ يَأْتِي الجَوَابُ؟! كَيْفَ كَانَ جَوَابُ الأَبِ لإِبْرَاهِيمَ؟

لَقَدْ كَانَ جَوَاباً قَاسِياً، وَكَانَ رَداً عَنِيفاً وَقَاسِياً ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أَيْ: أَتَارِكٌ أَنْتَ عِبَادَتَهَا؟! ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عَنْ سَبِّ أَصْنَامِي وَأَوْثَانِي الَّتِي أَعْبُدُهَا وَيَعْبُدُهَا النَّاسُ مِنْ دُونِ الله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بِالحِجَارَةِ أَوْ بِالسِّبَابِ أَوْ بِالشَّتْمِ ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ يَقُولُ

لابْنِهِ: اهْجُرنِي زَمَناً طَوِيلاً، وَلَا تَتَعَرَّضْ إِلَيّ، وَاهْجُرْنِي سَالِماً قَبْلَ أَنْ تُصِيبَكَ عُقُوبَتِي.

وَهَكَذَا كَانَ جَوَابُ الأَبِ لابْنِهِ الَّذِي دَعَاهُ بِالأُسْلُوبِ الرَّفِيعِ الطَّيِّبِ، فَهَلْ غَضِبَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ قَوْلِ أَبِيهِ؟ هَلْ أَخْرَجَهُ ذَلِكَ عَنْ اتِّزَانِهِ وَحِلْمِهِ؟ هَلْ جَعَلَهُ يَغْضَبُ وَيَدْعُو عَلَى أَبِيهِ بِاللَّعْنِ وَالطَّرْدِ وَالوَيْلِ وَالثُّبُورِ؟

أَبداً، فَلَقَدْ جَاءَ جَوَابُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ وَلا تَهَوُّرٍ، فَلَمْ يَفْقِدْ صَوَابَهُ، وَلَمْ يَفْقِدْ أَدَبَهُ مَعَهُ وَلا احْتِرَامَهُ لَهُ، وَإِنَّمَا قَالَ لَهُ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾. وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

إِبْرَاهِيمُ- عليه السلام- يَقُولُ مُجِيباً لأَبِيهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ أَيْ: أَمَّا أَنَا فَلا أَنَالُ مِنْكَ مَكْرُوهاً وَلا أَذًى، و﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أَيْ: كَانَ بِي لَطِيفاً وَرَحِيماً.

وَلَمَّا أَيِسَ مِنْ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ قَالَ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ أَنْتُمْ وَأَصْنَامَكُمْ، ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ أَيْ أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وَعَسَى هَذِهِ مُوجِبَةٌ لا

مَحَالَةَ فَإِنَّهُ- عليه السلام- سَيِّدُ الأَنْبِيَاءِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَهُنَا وَقْفَةٌ مَعَ الدُّعَاةِ مِمَّنْ يَئِسَ مِنْ اسْتِجَابَةِ مَنْ يَدْعُوهُ مِنَ المَدْعُوينَ، وَنَفْعِ المَوَاعِظِ فِيهِمْ؛ أَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِإِصْلاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ يَرْجُوا القَبَولَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يَعْتَزِلُوا الشَّرَّ وَأَهْلَهُ كَمَا فَعَلَ أَبُو الأَنْبِيَاءِ- عليه الصلاة والسلام.

فَإِذَا اعْتَزَلُوهُمْ وَمَا يَعْمَلُونَ، وَتَرَكُوا الوَطَنَ وَالأَهْلَ؛ فَإِنَّ اللهَ سَيُعَوِّضُهُمْ خَيْراً كَثِيراً؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ- جَلَّ جلالُهُ- فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا﴾ مِنْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿جَعَلۡنَا نَبِيًّا﴾ فَحَصَلَ لَهُ هِبَةُ هَؤُلاءِ الصَّالِحِينَ المُرْسَلِينَ إِلَى النَّاسِ؛ الَّذِينَ خَصَّهُمْ اللهُ بِوَحْيِهِ، وَاخْتَارَهُمْ لِرَسَالَتِهِ، واصْطَفَاهُمْ مِنَ العَالَمِينَ.

وَسَأَلَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لأَبِيهِ، وَاسْتَمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى بَعْدَ فِرَاقِ قَوْمِهِ، وَفِرَاقِهِ الشَّامَ وَمَجِيئِهِ إِلَى مَكَّةَ وَبِنَائِهِ لِلْبَيْتِ الحَرَامِ، فَإِنَّ اللهَ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَخْبَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ دَعَا بَعْدَ بِنَائِهِ البَيْتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن

تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١].

ثُمَّ يُخْبِرُ اللهُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ دَعَا فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[٢]. فَإِلَى هَذَا الوَقْتِ وَهُوَ يَدْعُو، يَدْعُو اللهَ لِيَغْفِرَ لأَبِيهِ، وَأَنْ يُدِلَّهُ عَلَى الهِدَايَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ شَفَقَةِ إِبْرَاهِيمَ- عليه الصلاة والسلام، وَحِرْصِهِ عَلَى هِدَايَةِ أَبِيهِ، وَلَكِنْ لما عَلِمَ كُفْرُهُ وَثَبَاتَهُ عَلَى كُفْرِهِ تَبَرَّأَ مِنْ كُفْرِهِ وَضَلالِهِ وَشِرْكِهِ بِاللهِ.

أَيْنَ الأَبْنَاءُ مِنْ نُصْحِهِمْ لآبَائِهِمْ:

إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَبْنَاءِ يَمْشُونَ عَلَى خُطَا آبَائِهِمْ، وَيَقْتَفُونَ آثَارَهُمْ إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ شَراً فَشَرٌّ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا يَفْعَلُونَهُ هُوَ حَرَامٌ وَلا يَجُوزُ، وَالبَعْضُ الآخَرُ تَرَاهُ لا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُ أَبُوهُ مِنَ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لا يَنْصَحُهُ وَلا يَعِظُهُ. وَكِلا الأَمْرَيْنِ لا يَجُوزُ فَالأَوَّلُ هُوَ كَقَوْلِ المُشْرِكِينَ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[٣].

وَالثَّانِي تَقْصِيرٌ فِي مَحَبَّةِ آبَائِكُمْ وَمُخَالَفَةٌ لِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ

---

(١) إبراهيم: ٣٥، ٣٦.
(٢) إبراهيم: ٤٢.
(٣) الزخرف: ٢٣.

نُصْحِهِمْ وَبِرِّهِمْ .

تقَبلوا نصِيحَةَ أبْنائِكُمْ لَكُمْ :

أَيُّهَا الآبَاءُ:

إِنَّ أَبْنَاءَكُمْ عِنْدَمَا يَنْصَحُونَكُمْ وَيُرْشِدُونَكُمْ إِنَّمَا يَبْغُونَ لَكُمْ الخَيْرَ وَالفَلاحَ، وَأَنْ تَكُونُوا القُدْوَةَ الكَامِلَةَ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَرُدُّوا نَصِيحَتَهُمْ وَلا تَقْبَلُوهَا فَإِنَّ النَّدَمَ سَيَكُونُ حَلِيفَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.

فَحَذَارِ ثُمَّ حَذَارِ مِنْ ذَلِكَ فَلَقَدْ أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مَصِيرِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَكَيْفَ أَنَّهُ سَيَنْدَمُ وَيَتَمَنَّى لَوْ يَنْفَعُهُ اتِّبَاعُهُ لابْنِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَكِنْ لاتَ حِينَ مَنْدَمٍ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لا تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لا أَعْصِيكَ فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلاَّ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ[1] مُلْتَطِخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ**»[2].

---

(١) الذيخ: ذكر الضبع الكثير الشعر. أري أباه على غير هيئته ومنظره ليسرع إلى التبرؤ منه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٠).

الدروس المستفادة من هذه الحكاية:

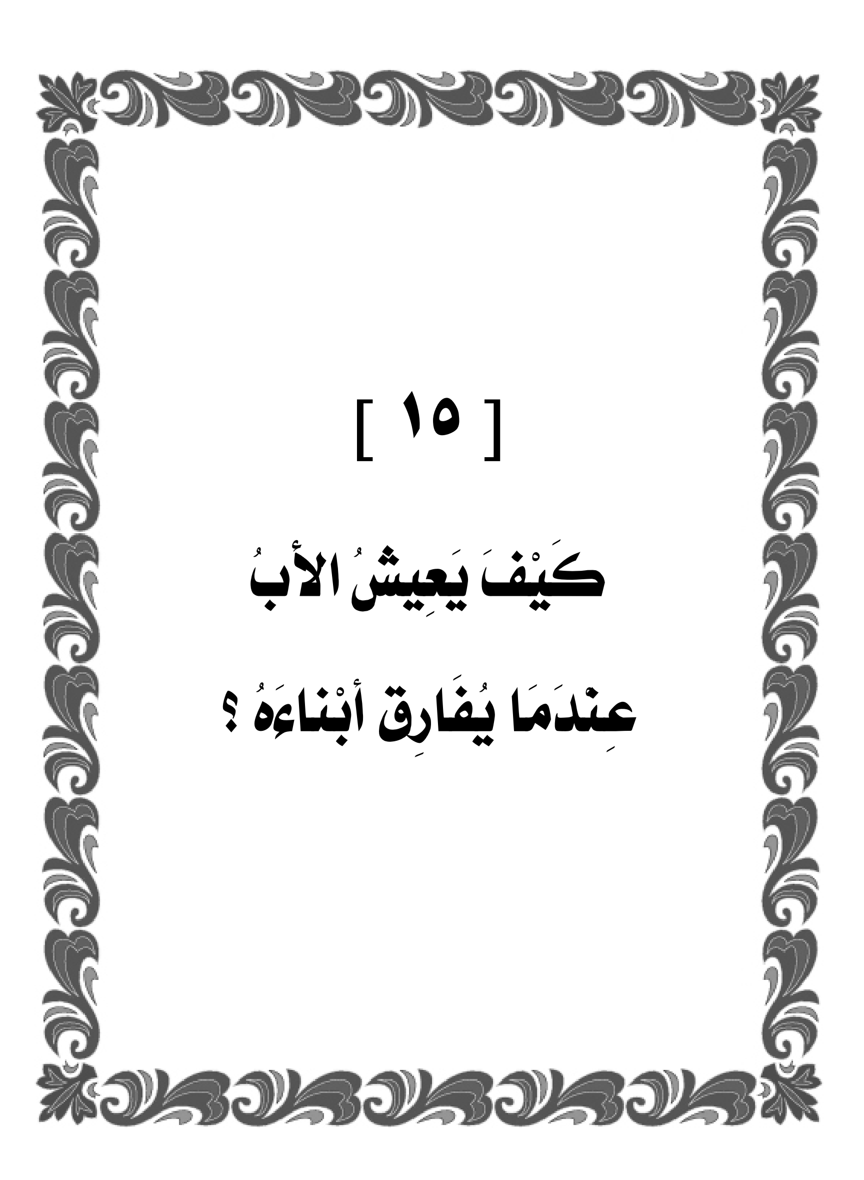
١ - رَوَابِطُ اللُّغَةِ وَالدَّمِ وَالنَّسَبِ وَالوَطَنِ رَوَابِطُ مُؤَقَّتَةٌ، أَمَّا الرَّابِطَةُ الأَثْبَتُ وَالأَقْوَى فَهِيَ رَابِطَةُ الدِّينِ وَالعَقِيدَةِ.

٢ - عَلَى الأَبْنَاءِ أَنْ يَنْصَحُوا آبَاءَهُمْ شَفَقَةً عَلَيْهِمْ وَحُباً لَهُمْ، وَأَلاَّ يَنْسَوْا أَنَّهُمْ يَنْصَحُونَ آبَاءَهُمْ .

٣- عَلَى الابْنِ أَنْ يَنْصَحَ أَبَاهُ مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ وَلا تَهَوُّرٍ، فَلَا يَفْقِدُ صَوَابَهُ، وَلا يَفْقِدُ أَدَبَهُ مَعَهُ وَلا احْتِرَامَهُ لَهُ.

٤ - عَلَى الدُّعَاةِ إِذَا يَئِسُوا مِنْ اسْتِجَابَةِ مَنْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ المَدْعُوِينَ، وَنَفْعِ المَوَاعِظِ فِيهِمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ يَرْجُوا القَبُولَ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يَعْتَزِلُوا الشَّرَّ وَأَهْلَهُ كَمَا فَعَلَ أَبُو الأَنْبِيَاءِ- عَلَيْهِ الصلاة والسلام.

٥ - إِنَّ أَبْنَاءَكُمْ عِنْدَمَا يَنْصَحُونَكُمْ وَيُرْشِدُونَكُمْ إِنَّمَا يَبْغُونَ لَكُمْ الخَيْرَ وَالفَلاحَ، وَأَنْ تَكُونُوا القُدْوَةَ الكَامِلَةَ فِي أَعْيُنِهِمْ لَهُمْ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَرُدُّوا نَصِيحَتَهُمْ وَلَا تَقْبَلُوهَا فَإِنَّ النَّدَمَ سَيَكُونُ حَلِيفَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَحَذَارِ ثُمَّ حَذَارِ.



[١٥]

كَيْفَ يَعِيشُ الأبُ

عِنْدَمَا يُفَارِقُ أبْنَاءَهُ ؟

كَيْفَ يَعِيشُ الأَبُ عِنْدَمَا يُفَارِقُ أَبْنَاءَهُ ؟

أَرَادَ رَجُلٌ الْخُرُوجَ لِلْحَجِّ وَكَانَ لَهُ ابْنَانِ، فَعَزَّ عَلَيْهِ فُرَاقُهُمَا، وَمَلأَ الْحُزْنُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ لِبُعْدِهِمَا، فَقَالَ مُخَاطِباً لَهُمَا وَوَاصِفاً حَالَهُ لِفُرَاقِهِمَا:

أَطْبَقْتُ لِلنَّوْمِ جَفْناً لَيْسَ يَنْطَبِقُ ... وَبِتُّ وَالدَّمْعُ فِي خَدَّيَّ يَسْتَبِقُ

لَمْ يَسْتَرِحْ مَنْ لَهُ عَيْنٌ مُؤَرَّقَةٌ ... وَكَيْفَ يَعْرِفُ طَعْمَ الرَّاحَةِ الأَرِقُ

مُحَمَّدٌ وَأَخُوهُ فَتَّتَا كَبِدِي ... إِذَا ذَكَرْتُهُمَا وَالْعِيسُ تَنْطَلِقُ

طِفْلانِ حَلَّ مِنْ قَلْبِي فُرَاقُهُمَا ... مَا كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهِ قَبْلَ نَفْتَرِقُ

قَلْبٌ رَقِيقٌ تَلَظَّتْ فِي جَوَانِبِهِ ... نَارُ الصَّبَابَةِ حَتَّى كَادَ يَحْتَرِقُ

وَدِدْتُ لَوْ تَمَّ لِي حَجٌّ بِقُرْبِهِمَا ... مَا كُلُّ مَا يَشْتَهِيهِ الْمَرْءُ يَتَّفِقُ

لا يَعْجَبُ النَّاسُ مِنْ وَجْدِي وَمِنْ ... قَلَقِي إِنَّ الْمشُوقَ إِلَى أَحْبَابِهِ قَلِقُ

الْحَيَاةُ فُرَاقٌ وَتلاقٌ :

عَجِيبٌ أَمْرُ هَذِهِ الْحَيَاةِ، فَهِيَ جَمَعَتْ ضِمْنَ طَيَّاتِهَا كُلَّ الْمتَنَاقِضَاتِ، وَحَوَتْ دَاخِلَ جُعْبَتِهَا كُلَّ المتَغَيِّرَاتِ، فَلَيْسَ فِيهَا فَرَحٌ يَدُومُ؛ لأَنَّ الْحُزْنَ يَقْطَعُهُ، وَلَيْسَ فِيهَا حُزْنٌ يَدُومُ؛ لأَنَّ سَاعَاتِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ تَعْتَرِضُهُ، لَيْسَ فِيهَا لِقَاءٌ دَائِمٌ؛ لأَنَّ الْفُرَاقَ وَالْبُعْدَ وَالسَّفَرَ وَكَذَا الموْتَ لا بُدَّ أَنْ يَخْتَلِجَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، فَيُفَرِّقَ جَمْعَهُمْ وَيُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الناسِ**»[1].

فَالأَحْزانُ وَالآلامُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ تَقْتُلُ سَاعَاتِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ؛ فَتَرَى دُمُوعاً مِنَ الْفُرَاقِ فَائِضَةً، وَبِحَاراً مِنَ الأَحْزَانِ هَائِجَةً، وَسِيَاطاً مِنَ الآلامِ وَالأَمْرَاضِ مُوجِعَةً وَمُؤْلِمَةً.

الْفُرَاقُ صَعْبٌ لَكِنَّ فُرَاقَ الأَحِبَّةِ أَصْعَبُ :

إِنَّ أَعْظَمَ سَاعَاتِ الأَلَمِ وَالْحُزْنِ عِنْدَمَا يُفَارِقُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ، وَيَتَضَاعَفُ الْحُزْنُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ عِنْدَمَا يَكُونُ الْحَبِيبُ فَلْذَةَ الْكَبِدِ وَثَمَرَةَ الْفُؤَادِ، وَزِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبَهْجَتَهَا وَسُرورَهَا، فَهَذَا الأَبُ يُفَارِقُ أَبْنَاءَهُ عِنْدَ سَفَرِهِ لِبَيْتِ الله الْحَرَامِ لِيُؤَدِّيَ فَرِيضَةَ الْحَجِّ، وَهُنَا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٩٢١)، وقال الذهبي : صحيح.

نَرَى أَنَّ أَيَّ أَمْرٍ أَوْ أَيَّ حَقٍّ لا يَقِفُ أَمَامَ حَقِّ الله- تَعَالَى- وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ الَّتِي افْتَرَضَهَا عَلَيْنَا، وَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ كُلُّ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ، بَلْ كُلُّ النَّاسِ؛ فَلا يُقَدِّمُوا عَلَى حَقِّ الله ـ تَعَالَى ـ وَرَسُولِهِ أَهْلاً وَلا مَالاً وَلا وَلَداً، وَرُبَّمَا يَكُونُ هَذَا الأَمْرُ شَاقاً عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النُّفُوسِ، لَكِنَّهُ عِنْدَمَا يُخَالِطُ الإِيمَانُ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ فَكُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ أَمَامَ طَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ، وَهَذِهِ هِيَ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً حَقاً، قَالَ اللهُ- تَعَالَى- فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ..﴾.

وَلِذَلِكَ فَاللهُ يُعْطِيهِمُ الأَجْرَ الْعَظِيمَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ عِنْدَمَا يُضَحُّونَ بِحُبِّهِمْ لأَوْلادِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنْ أَجْلِ الله وَرَسُولِهِ، فَكَانَ ثَوابُهُمْ عَظِيماً، وَأَجْرُهُمْ كَبِيراً فَقَالَ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

لِسَانُ الْحَالِ يَتَكَلَّمُ :

إِنَّ هَذَا الأَبَ يُعَبِّرُ بِأَبْيَاتٍ مُؤَثِّرَةٍ، وَكَلِمَاتٍ حَزِينَةٍ مُعَبِّرَةٍ عَنْ

(١) المجادلة: ٢٢.

مَدَى مَا يُلاقِيهِ مِنْ أَلَمِ النَّوَى وَشِدَّةِ الْفُرَاقِ.

وَلَكِنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَتَكَلَّمُ قَبْلَ لِسَانِ شِعْرِهِ وَمَقَالِهِ، فَحَالُهُ تَتَكَلَّمُ بِأَنِينٍ، وَتَتَحَدَّثُ بِحُرْقَةٍ وَحَنِينٍ فَيَقُولُ: إِنَّ الْوَدَاعَ صَعْبٌ وَلَوْ إِلَى الْغَدِ، فَكَيْفَ إِنْ كَانَ المَوَدَّعُ وَلَدًا حَبِيباً، فَكَيْفَ إِنْ كَانُوا أَوْلادًا؟ أَنْتُمْ أَوْلادِي وَأَبْنَائِي وَثَمَرَةُ فُؤَادِي وَفَلْذَةُ كَبِدِي، لا أَسُوقُهَا كَأَنَّهَا كَلِمَةٌ تُقَالُ، وَلَكِنْ تَنْطِقُ بِهَا كُلُّ جَارِحَةٍ فِيَّ، وَأُحُسُّهَا مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِي!

إِنِّي أُفَكِّرُ فِيكُمْ دَائِمًا وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ؟ إِنِّي آلَمُ إِذَا تَأَلَّمَ أَحَدُكُمْ، وَأَثُورُ إِذَا تَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْكُمْ؟

لا أَنْسَاكُمْ وَأَنْتُمْ تَدْعُونَنِي لأُشَارِكَكُمْ فِي أَلْعَابِكُمْ، وَلا يَغِيبُ عَنِّي كَيْفَ تَقُصُّونَ عَلَيَّ أَخْبَارَكُمْ وَتَبُثُّونَنِي أَحْزَانَكُمْ، وَتُنَبِّؤُنَنِي بِأَسْرَارِكُمْ، وَتَشْكُونَ إِلَيَّ مَا يُصِيبُكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ.

أَنْتُمْ أَوْلادِي، فَهَلْ رَأَيْتُمْ أَبًا يُوَدِّعُ أَوْلادَهُ ثُمَّ يَمْلِكُ نَفْسَهُ أَنْ تَسِيلَ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ؟

شِعْرٌ يُتَرجِمُ أَلَمَ الْفُرَاقِ :

إِنَّ هَذِهِ الأَبْيَاتِ الشِّعْرِيَّةَ تُعَبِّرُ لِكُلِّ ابْنٍ عَنْ مَدَى مَحَبَّةِ الأَبِ لأَبْنَائِهِ، وَكَمْ هِيَ عَظِيمَةٌ وَكَبِيرَةٌ وَصَادِقَةٌ!! إِنَّهَا مَشَاعِرُ صَادِقَةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ أَصْدَقِ الْقُلُوبِ، وَأَرَقِّ الأَفْئِدَةِ، أَلا وَهُوَ قَلْبُ الأَبِ،

إِنَّ هَذِهِ الْـمَشَاعِرَ بِمَقْدُورِهَا عِنْدَمَا تَتَحَوَّلُ إِلَى وَاقِعٍ يَعِيشُهُ الأَبُ مَعَ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ أَنْ تَجْعَلَ مِنَ الصَّحَرَاءِ المقْفِرَةِ الْخَالِيَةِ بُسْتَاناً أَخْضَرَ يَانِعاً فِيهِ أَزْهَارٌ جَمِيلَةٌ وَأَشْجَارٌ بَاسِقَةٌ طَوِيلَةٌ تَتَدَفَّقُ عَبْرَ سَوَاقِي الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ الرَّقِيقَةِ، فَتَرَى فِيهِ الأُنْسَ وَالموَدَّةَ وَالمحَبَّةَ تَتَمَشَّى ضِمْنَ عُرُوقِ أَشْجَارِهِ؛ لِيَنْبَعِثَ مِنْ خِلالِهَا رُوحُ الْحَيَاةِ الْجَمِيلَةِ، وَيَقْضِيَ عَلَى كُلِّ تَعَبٍ وَنَصَبٍ وَهَمٍّ وَحُزْنٍ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

لَكِنَّ مَشِيئَةَ اللهِ- تَعَالَى- أَنَّ دَوَامَ الْحَالِ مِنَ المحَالِ، فَلا بُدَّ مِنْ مُنَغِّصَاتٍ، وَمِنْ مُكَدِّرَاتٍ تُكَدِّرُ صَفْوَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْجَمِيلَةِ مِنْ مَرَضٍ وَحُزْنٍ وَأَلَمٍ وَفُرَاقٍ.

وَإِنَّ الْفُرَاقَ لَيَصْعُبُ عَلَى الأَبِ عِنْدَ فُرَاقِ أَبْنَائِهِ، فَتَرَى الدُّمُوعَ الَّتِي ظَنَّ أَنَّهَا غَارَتْ إِذَا بِهَا تَتَدَفَّقُ، وَتُعِيدُ حَفْرَ مَمَرَّاتِهَا الْقَدِيمَةِ، لا بَلْ تُنْشِئُ مَمَرَّاتٍ أُخْرَى لِشِدَّةِ غَزَارَتِهَا وَتَدَفُّقِهَا.

وَكَمْ ذَا يَحْزَنُ الأَبَوَانِ.. وَيَتَجَرَّعَانِ الْغُصَصَ لِفُرَاقِ أَوْلادِهِمَا.. وَلَوْ كَانَ فُرَاقاً إِلَى أَجَلٍ:

لَوْ كَانَ يَدْرِي الابْنُ أَيَّةَ غُصَّةٍ ... يَتَجرَّعُ الأَبَوَانِ عِنْدَ فُرَاقِهِ

لَتَبَدَّلَ الطَّبْعُ الْغَلِيظُ بِرِقَّةٍ ... وَجَزَاهُمَا بِالْعَطْفِ مِنْ أَخْلاقِهِ

إِنَّ الدُّمُوعَ الَّتِي تَتَرَقْرَقُ مِنْ عَيْنَيِ الأَبِ.. وَهُوَ يُوَدِّعُ أَوْلادَهُ.. وَقَدْ رَكِبَ مُسَافِراً أو هُمْ رَكِبُوا مُسَافِرِينَ، وَهُوَ الَّذِي تَشِحُّ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ إِلا قَلِيلاً لَتَنْطِقُ شِعْراً، وَتَكْتُبُ نَثْراً.. وَتُتَرْجِمُ عَنْ قَلْبِهِ المتَأَجِّجِ بِعَاطِفَةِ الأُبُوَّةِ فَتَقُولُ بِلِسَانِهِ:

قَدْ يَعْجَبُ الْعُذَّالُ مِنْ رَجُلٍ ... يَبْكِي وَلَوْ لَمْ أَبْكِ فَالْعَجَبُ

هَيْهَاتَ مَا كُلُّ الْبُكَا خَوَرٌ ... إِنِّي وَبِي عَزْمُ الرِّجَالِ.. أَبُ

اقْدُرُوا مَحَبَّةَ آبَائِكُمْ لَكُمْ قَدْرَهَا :

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

إِنَّ قُلُوباً هَذِهِ مَحَبَّتُهَا وَعُيُوناً هَذِهِ دُمُوعُهَا لَجَدِيرَةٌ بِأَنَّ تَلْقَى مِنْكُمْ كُلَّ بِرٍّ وَإِحْسَانٍ، وَوُدٍّ وَعِرْفَانٍ، لا تُحْزِنُوهُمْ بِعُقُوقِكُمْ، لا تَجْرَحُوهُمْ بِإِسَاءَتِكُمْ، لا تَجْرَحُوا قُلُوبَهُمْ، وَلا تُدْمِعُوا أَعْيُنَهُمْ بِالْقَسْوَةِ عَلَيْهِمْ، فَقُلُوبُهُمْ تَعَوَّدَتْ أَنْ تَحْزَنَ لأَجْلِكُمْ لا مِنْكُمْ، وَدُمُوعُهُمْ تَعَلَّمَتِ النُّزُولَ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ لا مِنْ ظُلْمِكُمْ وَقَسْوَتِكُمْ، ارْحَمُوهُمْ، بِرُّوهُمْ، أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، ارْفَعُوا أَيْدِيكُمْ، وَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[(١)].

---

(١) الإسراء: ٢٤.

الدروس المستفادة من القصة:

١ - الْحَيَاةُ لا يَدُومُ فِيهَا شَيْءٌ، فَهِيَ لَيْسَتْ دَارَ مَقَرٍّ وَلا مَصِيرٍ، بَلْ دَارُ عُبُورٍ وَمُرُورٍ.

٢ - الْفُرَاقَ مُرُّ المـذَاقِ، صَـعْبٌ عَـلَى النُّفُـوسِ بَعْـدَ التَّلاقِـي، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ فُرَاقِ الأَبْنَاءِ أَشَدُّ صُعُوبَةً وَمَرَارَةً.

٣- قَلْبُ الأَبِ مُمْتَلِئٌ حُباً وَمَوَدَّةً وَحَنَاناً لأَوْلادِهِ.

٤ - دُمُوعُ الأَبِ عِنْدَ فُرَاقِ أَبْنَائِهِ هِيَ مِنْ أَصْدَقِ الدُّمُوعِ.

٥ - عَلَى الأَبْنَاءِ أَنْ يُقَدِّرُوا مَحَبَّةَ أَهْلِهِمْ لَهُـمْ، وَيُقَـابِلُوهُمْ بِـالبِرِّ وَالإِحْسَانِ.

[١٦]

لأجْلِكُمْ ادْعُوا لَهُمْ لا عَلَيْهِمْ

دُعَاؤُكُمْ لَهُمْ تَرْبِيَةٌ

لأَجْلِكُمْ ادْعُوا لَهُمْ لا عَلَيْهِمْ

دُعَاؤُكُمْ لَهُمْ تَرْبِيَةٌ

قَالَ سَهْلُ بْنُ بِشْرٍ: حَدَّثَنَا سُلَيْمُ بْنُ أَيُّوبَ بْنِ سُلَيْم أَنَّهُ كَانَ فِي صِغَرِهِ بِالرَّيِّ وَلَهُ نَحْوٌ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ، فَحَضَرَ بَعْضُ الْشُّيُوخِ وَهُوَ يُلَقِّنُ قَالَ: فَقَالَ لِي: تَقَدَّمْ فَاقْرَأْ.

فَجَهِدْتُ أَنْ أَقْرَأَ الْفَاتِحَةَ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَىَ ذَلِكَ لانْغلاقِ لِسَانِي، فَقَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ ؟ قُلْتُ: نَعَمْ: قَالَ: قُلْ لَهَا تَدْعُو لَكَ أَنْ يَرْزُقَكَ الله قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَالْعِلْم. قُلْتُ: نَعَمْ.

فَرَجَعْتُ، فَسَأَلْتُهَا الْدُّعَاءَ، فَدَعَتْ لِي، ثُمَّ إِنِّي كَبُرْتُ، وَدَخَلْتُ بَغْدَادَ، قَرَأْتُ بِهَا الْعَرَبِيَّةَ وَالْفِقْهَ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الْرَّيِّ، فَبَيْنَا أَنَا فِي الْجَامِعِ أُقَابِلُ «مُخْتَصرَ المزَنِيِّ»، وَإِذَا الْشَّيْخُ قَدْ حَضَرَ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَهُوَ لا يَعْرِفُنِي، فَسَمِعَ مُقَابَلَتَنَا، وَهُوَ لا يَعْلَمُ مَاذَا نَقُولُ، ثُمَّ قَالَ: مَتَى يُتَعَلَّمُ مِثْلُ هَذَا ؟.

فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: إِنْ كَانَتْ لَكَ وَالِدَةٌ، فَقُلْ لَهَا تَدْعُو لَكَ. فَاسْتَحْيَيْتُ(١).

---

(١) طبقات الشافعية، للسبكي (٤/ ٣٩٠، ٣٩١)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي (٦٤٦/١٦).

الدُّعَاءُ شُحْنَةُ حُبٍّ وَمَوَدَّةٍ :

إِنَّ الدُّعَاءَ يُعْتَبَرُ رُكْناً مِنَ الأَرْكَانِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي يُخَاطَبُ بِهَا الوَالِدَانِ لِلالْتِزَامِ بِهِ، إِذْ إِنَّ دُعَاءَ الوَالِدَيْنِ مُسْتَجَابٌ عِنْدَ الله- تَعَالَى، فَبِالدُّعَاءِ تَزْدَادُ شُحْنَةُ العَاطِفَةِ وَقُوداً، وَتَتَمَكَّنُ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ مِنْ قَلْبَي الوَالِدَيْنِ، فَيَتَضَرَّعَانِ إِلَى الله ـ تَعَالَى ـ وَيَبْتَهِلاَنِ إِلَيْهِ فِي إِصْلاحِ الطِّفْلِ.

والوَاجِبُ عَلَى الوَالِدَيْنِ، أَنْ يُكْثِرَا مِنَ الدُّعَاءِ لأَبْنَائِهِمْ، فَأَوْلادُهُمْ فَلَذَاتُ الأَكْبَادِ، وَهُمْ عِمَادُ الأُمَّةِ، وَهُمْ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ حُرِمُوا هَذِهِ الزِّينَةَ، فَتَرَاهُمْ يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ بَحْثاً وَتَنْقِيباً عَنْ أَيِّ بَارِقَةِ أَمَلٍ تُعِينُهُمْ بَعْدَ الله عَلَى الإِنْجَابِ، فَنِعْمَةُ الأَوْلادِ لاَ يَعْرِفُهَا إِلا مَنْ حُرِمَهَا، وَكَذَا كُلُّ نِعْمَةٍ لا يَعْرِفُ قَدْرَهَا إِلا مَنْ حُرِمَهَا، فَلِذَا عَلَى الآبَاء والأُمَّهَاتِ أَنْ يَتَحَيَّنُوا أَوْقَاتَ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَيَدْعُوا لأَبْنَائِهِمْ بِالهِدَايَةِ وَالصَّلاَحِ واتِّبَاعِ نَهْجِ المُصْطَفَى ﷺ.

وَمَا مِنْ أَبٍ وَلا أُمٍّ إِلا وَيُحِبَّانِ أَنْ يَكُونَ أَوْلادُهُمْ فِي الذُّرْوَةِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنَّ مِنْ السُّبُلِ المُعِينَةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الهَدَفِ السَّامِي الدُّعَاءَ لَهُمْ فِي كُلِّ الأَحْيَانِ وَاللُّجُوءَ إِلَى الله دائِماً

لإِصْلاحِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ، وَكَمْ مِنْ آبَاء يَشْكُونَ مِنْ ضَعْفِ أَبْنَائِهِمْ وَمِنْ عِنَادِهِمْ وَمِنْ كَثْرَةِ مَشَاكِلِهِمْ فَمَا عَلَيْهِمْ إلا أَنْ يَدْعُوا لَهُمْ كَمَا دَعَتْ أُمُّ سُلَيْم بْن أَيُّوب لابْنِهَا فَوَفَّقَهُ اللهُ .

وَرُبَّمَا يَبْذُلُ الأَهْلُ كُلَّ السُّبَلِ فَمَا تَنْفَعُ مَعَهُمْ لِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ فَعَلَيْهِمْ أَلا يَيْأَسُوا مِنْ الدُّعَاءِ لَهُمْ حَتَّى وَلَوْ انْجَرَفُوا فِي تَيَّارَاتِ السُّوءِ والفَسَادِ، فَأَثَرُ الدُّعَاءِ كَبِيرٌ فِي رَدِّهِمْ إِلَى جَادَّةِ الهُدَى والصَّوَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

قَصَصٌ فِي دُعَاءِ الوَالِدَيْنِ :

وَمِنَ القَصَصِ الَّتِي تُبَيِّنُ لَنَا أَثَرَ الدُّعَاءِ مَا رُوِيَ عَنْ الفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ، حَيْثُ اجْتَهَدَ فِي تَرْبِيةِ ابْنِهِ اجْتِهَاداً كَبِيراً، وَكَانَ يَأْمَلُ أَنْ يكُونَ صَالِحاً وَرِعاً تَقِياً وَلَكِنَّ الأَمْرَ صَعُبَ عَلَيْهِ فَدَعَا اللهَ- تَعالَى- قَائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي اجْتَهَدْتُ أَنْ أُؤَدِّبَ عَلِياً فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَأْدِيبِهِ، فَأَدِّبْهُ لِي»[1].

وَمُشْكِلَتُهُ كَمُشْكِلَةِ كَثِيرٍ مِنَ الآبَاءِ اليَوْمَ، وَهِيَ أَنَّ الوَالِدَ الحَانِي يَبْذُلُ كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ تَقْرِيباً فِي تَرْبِيَةِ وَلَدِهِ وَلَكِنْ لا يُحَالِفُهُ التَّوْفِيقُ.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ٤٤٥).

وَلَكِنَّ الفُضَيْلَ هُنَا لَمْ يَيْأَسْ وَرَفَعَ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ للهِ- تَعَالَى، فَكَانَ التَّوْفِيقُ مِنْهُ- سُبْحَانَهُ- إِذْ أَصْبَحَ عَلِيُّ بْنُ الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ إِمَاماً كَأَبِيهِ فِي العِلْمِ وَالزُّهْدِ، فَقَالَ عَنْهُ الإِمَامُ النَّسَائِيُّ: «ثِقَةٌ مَأْمُونٌ»، وَقَالَ الحَافِظُ أَبُوبَكْرٍ الخَطِيبُ: «كَانَ مِنَ الوَرَعِ بِمَحَلٍ عَظِيمٍ»، وَقَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: «خَيْرُ النَّاسِ الفُضَيْلُ بْنَ عِيَاض وَخَيْرٌ مِنْهُ ابْنُهُ عَلِيٌّ»، وقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : «مَا رَأَيْتُ أَحَداً أَخْوَفَ مِنْ الفُضَيْلِ وَابْنِهِ»[1].

وَأَصْبَحَ الفَتَى عَوْناً لأَبِيهِ عَلَى التُّقَى والزُّهْدِ وَالوَرَعِ، يَخْرُجَانِ مَعاً للصَّلاةِ وَالحَجِّ وَأَعْمَالِ الخَيْرِ، يُقِيمَانِ اللَّيْلَ مَعاً وَيَصُومَانِ مَعاً، إِلَى أَنْ انْتَهَى الأَجَلُ وَفَارَقَ عَلِيٌّ بْنُ الفُضَيْلِ الحَيَاةَ سَنَةَ ١٨٣ هِجْرِيَّة.

وَلَقَدْ افْتَقَدَهُ وَالِدُهُ وَحَزِنَ عَلَيْهِ كَثِيراً فَهَا هُوَ يَحْكِي عَنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَيَقُولُ: قَالَ لِي عَلِيٌّ يَوْماً: أَسْأَلُ الَّذِي جَمَعَنَا فِي الدُّنْيَا أَنْ يَجْمَعَنَا فِي الآخِرَةِ ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَلْ مُنْكَسِرَ القَلْبِ حَزِيناً. ثُمَّ بَكَى الفُضَيْلُ فَقَالَ: حَبِيبِي يَا مَنْ كَانَ يُسَاعِدُنِي عَلَى الحُزْنِ وَالبُكَاءِ، شَكَرَ اللهُ لَكَ مَا قَدْ عَلِمَهُ فِيكَ. وَهَكَذَا ظَلَّ وَالِدُهُ حَزِيناً حَتَّى لَحِقَ

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٨/ ٤٤٥).

بِهِ بِعْدَ أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ، حَيْثُ تُوُفِّيَ الفُضَيْلُ سَنَةَ ١٨٧ هِجْرِية.

وَنَظَراً لِمَا لِلدُّعَاءِ مِنْ أَثَرٍ عَظِيمٍ فِي صَلاَحِ الأَبْنَاءِ وَجَدْنَا الأَنْبِيَاءَ والرُّسُلَ - عَلَيْهِمْ السَّلامُ - يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ وَيُلِحُّونَ عَلَيْهِ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ ذُرِّيَاتِهِمْ، حَتَّى أَنَّهُمْ دَعوا الله - تَعَالَى - مِنْ أَجْلِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُولَدُوا.

فَالخَلِيلُ - عليه السلام - يَسْأَلُ رَبَّهُ الذُّرِّيَّةَ الصَّالِحَةَ: فَهُوَ يَرْفَعُ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ طَالبًا مِنَ الله - تَعَالَى - أَنْ يَرْزُقَهُ أَبْنَاءَ صَالِحِينَ مُصْلِحِينَ فَقَالَ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ سِناً كَبِيرَةً وامْرَأَتُهُ عَجُوزٌ وَهُوَ يَشْتَهِي الوَلَدَ لَكِنَّهُ لَا يُرِيدُ أَيَّ وَلَدٍ إِنَّمَا يُرِيدُ وَلَداً صَالِحاً، فَكَانَتْ الاسْتِجَابَةُ مِنْ الله - تَعَالَى - فَأَعْطَاهُ مَا سَأَلَ: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[2].

وَعَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ سَارَ سَيِّدُنَا زَكَرِيَّا - عليه السلام، إِذْ دَعَا اللهَ - تَعَالَى - لأَبْنَائِهِ قَبْلَ أَنْ يُولَدُوا، فَلِذَا نَرَاهُ يَدْعُو الله - تَعَالَى - أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَداً صَالِحاً مَرْضِياً عِنْدَ الله وَعِنْدَ النَّاسِ، يَتَحَمَّلُ مَعَهُ أَعْبَاءَ النُّبُوَّةِ والدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ الخَالِقِ - سُبْحَانَهُ - قَائِلاً: ﴿فَهَبْ

(١) الصافات: ١٠٠.

(٢) الصافات: ١٠١.

لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1].

وَلَقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ - تَعَالَى - لِدُعَائِهِ، وَحَمَلَتْ المَلائِكَةُ إِلَيْهِ البُشْرَى بِالوَلَدِ والنَّبِيِّ الصَّالِحِ: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[2].

أَمَّا امْرَأَةُ عِمْرَانَ أُمُّ السَّيِّدَةِ مَرْيَمَ.. فَإِنَّهَا لَمْ تَدْعُ لابْنَتِهَا فَحَسْبُ وَلَكِنْ دَعَتْ لَهَا وَلِذُرِّيَّتِهَا أَيْضاً وَلْنَسْمَعْ قَوْلَ الله - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْهَا: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[3].

وهَكَذَا كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ - رَحِمَهُمْ اللهُ - يَحْرِصُونَ كُلَّ الحِرْصِ عَلَى الدُّعَاءِ لأَبْنَائِهِمْ لِمَا يَعْلَمُونَ ما لَهُ مِنَ الأَثَرِ العَظِيمِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ.

فَهَذَا مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ ﷺ يَقُولُ: «لما وُلِدَ لي إِيَاسُ، دَعَوْتُ نَفَراً

(١) مريم: ٥، ٦.

(٢) آل عمران: ٣٩.

(٣) آل عمران: ٣٥، ٣٦.

مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَطْعَمْتُهُمْ، فَدَعَوْا، فَقَلْتُ: إِنَّكُمْ قَدْ دَعَوْتُمْ، فَبَارَكَ اللهُ لَكُمْ فِيمَا دَعَوْتُمْ، وَإِنِّي سَأَدْعُو بِدُعَاءٍ فَأَمِّنُوا، قَالَ: فَدَعَوْتَ لَهُ بِدُعَاءٍ كَثِيرٍ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ وَكَذَا، قَالَ: فَإِنِّي لأَتَعَرَّفُ فِيهِ دُعَاءَ يَوَمَئِذٍ» أَيْ أَنَّهُ يَعْرِفُ وَيَجِدُ فِيهِ بَعْدَ مَا كَبُرَ أَثَرَ دُعَائِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَهُوَ صَغِيرٌ[1].

وَكَذَلِكَ كَانُوا يَحْرِصُونَ عَلَى طَلَبِ الدُّعَاءِ لَهُمْ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ وَكُلِّ مَنْ يَتَوَسَّمُونَ فِيهِ الخَيْرَ وَالصَّلاَحَ. فَعَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بِالصِّبْيَانِ- أَيْ: حَدِيثِي الولادَةِ- فَيُحَنِّكُهُمْ وَيَدْعُو لَهُم بِالبَرَكَةِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ أَسْمَاءَ- رضي الله عنها- أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ بِمَوْلُودٍ لَهَا، فَحَنَّكَهُ بِالتَّمْرَةِ ثُمَّ دَعَا لَهُ وَبَرَّك عَلَيْهِ[2].

إِفْسَادٌ غَيْرُ مَقْصُودٍ :

إِنَّ كَثِيراً مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ يُفْسِدُونَ أَوْلادَهُمْ مِنْ حَيْثُ يَدْرُونَ أَوْ لا يَدْرُونَ فَمِنَ الخَطَأِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ أَنَّهُمْ يدْعُونَ عَلَى أَوْلادِهِمْ إِذَا حَصَلَ مِنْهُمْ مَا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٢٥٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٩)، ومسلم (٢١٤٦).

يُغْضِبُهُمْ، وَتَرَاهُمْ يَرْفَعُونَ أَكُفَّهُمْ وَيَدْعُونَ بِالوَيْلِ والثُّبُورِ وَالمَرَضِ وَالموْتِ وَعَدَمِ التَّوْفِيقِ لأَوْلادِهِمْ، وَهُمْ لا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَدْعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ سَيَجْنُونَ ثَمَرَةَ دُعَائِهِمْ عَلَى أَبْنَائِهِمْ، وَيَتَحَمَّلُونَ تَبِعَاتِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمَا سَيَكُونَانِ أَوَّلَ مَنْ يَكْتَوِي وَيَتَأَلَّمُ إِنْ أَصَابَ أَبْنَاءَهُمَا مَكْرُوهٌ. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ المُبَارَكِ يَشْكُو إِلَيْهِ وَلَدَهُ، فَقَالَ : أَدَعَوتَ عَلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ[1].

وَلَقَدْ بَيَّنَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطُورَةَ دُعَاءِ الأَهْلِ عَلَى أَوْلاَدِهِمْ وَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ سَبَبَ هَلاَكِهِمْ ودَمَارِهِمْ فَقَالَ ﷺ: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ وَلاَ تَدعُوا عَلَى أَوْلادِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَموَالِكُمْ، لا تُوافِقُوا مِنَ الله سَاعَةً يُسأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ**»[2].

فَالأَمْرُ خَطِيرٌ، والخَطْبُ جَسِيمٌ، والأَمْرُ مُنْتَشِرٌ- وَلِلأَسَفِ فِي أَوْسَاطِ كَثِيرٍ مِنَ الأَهْلِ مَعَ أَنَّ الأَمْرَ يَنْبَغِي ألاَّ يَصِلَ أَبَداً إِلَى دُعَائِهِمْ عَلَى أَبْنَائِهِمْ، فَالكُلُّ يُخْطِئُ، وَالكُلُّ يُقَصِّرُ، وَلَكِنَّ عِلاَجَ الخَطَأِ وَالتَّقْصِيرِ لَا يَكُونُ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ أَخْلاقِ

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ١٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٩).

المُسْلِمِينَ مَعَ بَعْضِهِمْ وَلا مَعَ غَيْرِهِمْ، وَلَقَدْ ضَرَبَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ أُنْمُوذَجاً رَفِيعاً فِي تَطْبِيقِ الدُّعَاءِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُوَجَّهَ الدُّعَاءِ، فَلَقَدْ بَعَثَ اللهُ- عز وجل- لَهُ مَلَكَ الجِبَالِ عِنْدَمَا آذاهُ أَهْلُ الطَّائِفِ لِيَقُولَ لَهُ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ- أَهْلِ الطَّائِفِ الَّذِينَ آذَوْهُ أَشَدَّ الإِيذَاءِ- فَعَلْتُ؟

فَكَانَ جَوَابُهُ ﷺ: «**بل أَرْجُو اللهُ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً..**»[1].

وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ مَعَ الأَعْدَاءِ والمُؤْذِينَ والسَّاخِرِينَ والمُكَذِّبِينَ لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَمَا بَالُكَ بالأَوْلادِ وَرَيَاحِينَ الجَنَّةِ ؟

نِداءٌ للآبَاءِ والأَبْنَاءِ :

أَيُّهَا الآبَاءُ :

إِنَّ لَدَيْكُمْ مُعِيناً كَبِيراً عَلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِكُمْ بِجَانِبِ ما تَبْذُلُونَهُ مِنْ جُهْدٍ وَمُتَابَعَةٍ لَهُمْ، أَلا وَهُوَ الدُّعَاءُ إِلَى مَنْ قُلُوبُ العِبَادِ بِيَدَيْهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، فَلا تُفَرِّطُوا بِالدَّعَاءِ لَهُمْ بَلْ أَلِحُّوا بِذَلِكَ عَلَى رَبِّكُمْ فَأَوْلادُكُمْ فَلَذَاتُ أَكْبَادِكُمْ وَثَمَرَاتُ أَفْئِدَتِكُمْ، فَادْعُوا لَهُمْ، وَتَضَرَّعُوا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

لله لأَجْلِ صَلاَحِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ.

وَيَا أَيُّهَا الأَبْنَاءُ :

إِنَّ دُعَاءَ وَالِدَيْكُمْ هُوَ مِنْ مَفَاتِيحَ تَوْفِيقِ الله لَكُمْ فَلاَ تُضَيِّعُوا هَذَا المِفْتَاحَ فَتَضِيعُوا وَتَهْلَكُوا، واحْرِصُوا مَعَ بِرِّكُمْ لآبَائِكُمْ وأُمَّهَاتِكُمْ أَنْ تَطْلُبُوا الدُّعَاء مِنْهُمْ فَهُوَ سَبِيلُ تَوْفِيقِ الله وهِدَايَتِهِ لَكُمْ .

الدروس المستفادة من القصة:

١- الدُّعَاءُ يَزِيدُ شُحْنَةَ العَاطِفَةِ وَقُوداً، وَبِهِ تَتَمَكَّنُ الرَّحْمَةُ والرَّأْفَةُ مِنْ قَلْبَيْ الوَالِدَيْنِ.

٢- رُبَّمَا يَبْذُلُ الأَهْلُ كُلَّ السُّبُلِ فَمَا تَنْفَعُ مَعَهُمْ لِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ فَعَلَيْهِمْ أَلا يَيْأَسُوا مِنَ الدُّعَاءِ لَهُمْ حَتَّى وَلَوْ انْجَرَفُوا فِي تَيَّارَاتِ السُّوءِ والفَسَادِ، فَأَثَرُ الدُّعَاءِ كَبِيرٌ فِي رَدِّهِمْ إِلَى جَادَّةِ الهُدَى والصَّوَابِ إِنْ شَاء اللهُ .

٣- أَيُّهَا الآبَاءُ: لا تُفَرِّطُوا بِالدُّعَاءِ لأَوْلادِكُمْ بَلْ أَلِحُّوا بِذَلِكَ عَلَى رَبِّكُمْ فَأَوْلادُكُمْ فَلَذَاتُ أَكْبَادِكُمْ وَثَمَرَاتُ أَفْئِدَتِكُمْ، فَادْعُوا لَهُمْ، وَتَضَرَّعُوا لله لأَجْلِ صَلاَحِهِمْ وَفَلاحِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ .

٤ – أَيُّهَا الأَبْنَاءُ: إِنَّ دُعَاءَ وَالِدَيْكُمْ هُوَ مِـنْ مَفَـاتِيحَ تَوْفِيـقِ الله لَكُمْ فَلاَ تُضَيِّعُوا هَذَا المِفْتَاحَ فَتَضِـيعُوا وَتَهْلَكُـوا، واحْرِصُـوا مَـعَ بِرِّكُمْ لآبائِكُمْ وأُمَّهَاتِكُمْ أَنْ تَطْلُبُوا الدُّعَاءِ مِنْهُمْ فَهُوَ سَبِيلُ تَوْفِيقِ الله وهِدَايَتِهِ لَكُمْ .

٥ – قَدْ تَكَونُ إِجَابَـةُ الـدَّعْوَةِ عَـلَى الوَلَـدِ سَـبَباً فِي مَزِيـدٍ مِـنَ العُقُوقِ والفَسَادِ لِمَنْ دُعِيَ عَلَيْـهِ مِـنَ الأَوْلادِ؛ فَـإِنَّ الـدُّعَاءَ عَـلَى الأَوْلادِ لَنْ يَزِيدَهُمُ إلا فَسَاداً وَعِنَاداً وعُقُوقاً، وأَوَّلُ مَـنْ يَشْـتكِي هَذَا العُقُوقَ هُوَ مَنْ تَسَرَّعَ بِالدُّعَاءِ عَلَى الأَوْلادِ .



[١٧]

وَجِّههُمْ لما يَرْغَبُونَ

وَجِّهُهُمْ لما يَرْغَبُونَ

قَالَ قَاضِي القُضَاةِ أَبُو الحَسَنِ عَلِيّ بْنُ مُحَمَّدٍ الدَّامِغانِيِّ- رحمه الله: كُنْتُ فِي صَبْوَتِي مُتَشَاغِلاً بِالبَطَالَةِ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَى العِلْمِ، فَأَحْضَرَنِي أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّد بن عَلِي الدامغاني- رحمه الله، وَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ إِنِّي لَسْتُ أَبْقَى لَكَ أَبَدًا، فَخُذْ عِشْرِينَ دِينَارًا وَافْتَحْ دُكَّانَ خَبَّازٍ وَتَكَسَّبْ! فَقُلْتُ: مَا هَذَا الكَلامُ؟! قَالَ: فَافْتَحْ دُكَّانَ بَزَّازٍ! فَقُلْتُ: تَقُولُ هَذَا وَأَنَا ابْنُ قَاضِي القُضَاةِ أَبِي عَبْدِ الله الدَّامِغَانِي! قَالَ: فَمَا أَرَاكَ تُحِبُّ العِلْمَ! فَقُلْتُ: اذْكُرْ لِي الدَّرْسَ السَّاعَةَ، فَذَكَرَ لِي، فَأَقْبَلْتُ عَلَى التَّشَاغُلِ بِالعِلْمِ وَاجْتَهَدْتُ فَفَتَحَ اللهُ عَلَيَّ(١).

الأُبُوَّةُ مَصْدَرُ خَيْرٍ وَعَطَاءٍ:

إِنَّ الأُبُوَّةَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الله، فَالأَبُ يَمْلُكُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلْبًا أَشَدَّ بَيَاضًا مِنْ الثَّلْجِ، وَأَصْفَى مِنَ المَاءِ الزُّلالِ تِجَاهَ أَبْنَائِهِ، إِنَّهُ يَمْلُكُ قَلْبًا نَاصِعَ البَيَاضِ لَيْسَ فِيهِ شَائِبَةُ حِقْدٍ وَلا حَسَدٌ وَلا كَرَاهِيَةٌ وَلا بُغْضٌ تِجَاهَ أَبْنَائِهِ، فَهُوَ مَا إِنْ يَطُلُّ ابْنُهُ عَلَى الوُجُودِ،

---

(١) لفتة الكبد لابن الجوزي (١/ ٧).

وَيَمْلأُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَوِجْدَانَهُ سَعَادَةً وَفَرَحًا وَسُرُورًا إِذَا بِهِ يُخَطِّطُ لابْنِهِ وَيَرْسُمُ لَهُ فِي خَيَالِهِ مُسْتَقْبلاً زَاهِرًا، لا غَضَاضَةَ عِنْدَهُ أَنْ تَكُونَ حَيَاةُ ابْنِهِ أَسْعَدَ مِنْ حَيَاتِهِ، لَا غُصَّةَ عِنْدَهُ أَنْ يَتَمَتَّعَ ابْنُهُ فِي عِيشَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَمَتَّعَ هُوَ فِي حَيَاتِهِ، لأَنْ قَلْبَهُ الطَّيِّبَ يُحِسُّ بِالفَرَحِ عِنْدَمَا يَرَى وَيَسْمَعُ ضَحِكَاتِ ابْنِهِ تَمْلأُ أَرْجَاءَ الكَوْنِ كُلِّهِ.

لا تُخَيِّبُوا ظَنَّ آبائِكُمْ بِكُمْ:

أيها الأبناء:

إِنَّ حُبَّ آبَائِكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ لَكُمْ بَذْرَةٌ طَيِّبَةٌ أَلْقَاهَا اللهُ- جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- فِي رَوْحِهِمَا وَهِيَ بِاسْتِمْرَارٍ تَنْمُو وَتَكْبُرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْم.

إِنَّ آبَاءَكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ يَسْتَشِفُّونَ مِنْ أَعْيُنِكُمْ عِنْدَمَا كُنْتُمْ صِغَارًا صُورَةَ مُسْتَقْبلٍ بَاهِرٍ، تَتَعَالَى صُورَتُهُ فَوْقَ كُلِّ جُرُوحِ المَاضِي وَآلامِ الحَاضِرِ.

إِنَّ آبَاءَكُمْ وَأُمَّهَاتِكُمْ يَنْتَظِرُونَ مِنْكُمْ بَلْ لَكُمْ الخَيْرَ العَمِيمَ وَالمَكَانَةَ السَّامِيَةَ، وَالجَاهَ العَظِيمَ، فَكُونُوا عَلَى قَدْرِ المَسْؤُولِيَّةِ، وَلا تُخَيِّبُوا ظَنَّهُمَا بِكُمْ، فَهُمَا مِنْ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ أَكُفَّ الضَّرَاعَةِ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(١).

---

(١) الفرقان: ٧٤.

عَلِّمُوهُمْ اتخاذ القَرَارَاتِ :

أيها الآباء:

إِنَّ مَبْدَأَ تَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ مَبْدَأٌ يَتِمُّ تَعَلُّمُهُ وَالتَّدَرُّبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الإِنْسَانِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، وَهَذَا يَضَعُ مَسْؤُولِيَّةَ تَنْمِيَةِ تَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ عِنْدَ الأَبْنَاءِ عَلَى كَاهِلِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ لِيَشِبَّ عَلَيْهَا وَهُوَ يَعْرِفُ مَا مَعْنَى أَنَّهُ مَسْؤُولٌ وَكَيْفَ وَلِمَاذَا ؟

أَيُّهَا الآبَاءُ..

إِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُعَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ كَيْفَ يَتَّخِذُونَ قَرَارَاتِهِمْ وَيُحَدِّدُونَ وَجْهَاتِهِمْ وَيَتَحَمَّلُونَ مَسْؤُولِيَّتَهُمْ وَذَلِكَ مِنْ خِلالِ مُسَاعَدَتِهِمْ لِيُعَبِّرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى فِي أَصْغَرِ الأَشْيَاءِ وَأَقَلِّهَا شَأْنًا، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا التَّعْلِيمُ بِأُسْلُوبٍ رَاقٍ حَكِيمٍ مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلا إِجْبَارٍ، فَالابْنُ كُلَّمَا مَارَسَ حَقَّهُ فِي الاخْتِيَارِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى تَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ إِزَاءَ قَرَارِهِ.

رَوْعَةُ الطَّرْحِ تُعْطِي أَرْوَعَ النَّتَائِجِ :

مَا أَرْوَعَ الأُسْلُوبَ الحَكِيمَ الَّذِي قَامَ بِهِ الأَبُ فِي قِصَّتِنَا فِي تَعْلِيمِ ابْنِهِ تَحَمُّلَ المَسْؤُولِيَّةِ، فَالأَبُ كَانَ قَاضِيَ القُضَاةِ وَمِنْ كِبَارِ العُلَمَاءِ، أَمَّا ابْنُهُ فَشَأْنُهُ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ الشَّبَابِ فِي شَبَابِهِمْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ بِالمَسْؤُولِيَّةِ، وَلا يَعْرِفُونَ لَهَا أَيَّ مَعْنًى، فَمَا كَانَ مِنَ الأَبِ

إِلا أَنْ قَامَ بِوَاجِبِهِ تِجَاهَ ابْنِهِ وَعَلَّمَهُ تَحَمُّلَ المَسْؤُولِيَّةِ لَكِنْ بِأُسْلُوبٍ رَائِعٍ، وَمِنْ حِكْمَةٍ عَالِيَةٍ، لَمْ يُجْبِرْهُ أَنْ يَكُونَ قَاضِيًا مِثْلَهُ، وَلا أَكْرَهَهُ عَلَى تَعَلُّمِ العِلْمِ وَإِحْرَازِ الشَّهَادَاتِ العُلْيَا، أَعْطَاهُ مَالاً وَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِنِّي لَسْتُ أَبْقَى لَكَ أَبَدًا.. خُذْ عِشْرِينَ دِينَارًا وَافْتَحْ دُكَّانَ خُبْزٍ وَتَكَسَّبْ مِنْهُ، وَهُنَا حَرَّكَ فِي ابْنِهِ طَاقَاتِهِ وَمَوَاهِبَهُ وَغَيْرَتَهُ عَلَى سُمْعَتِهِ وَمَكَانَتِهِ فَقَالَ: مَا هَذَا الكَلامُ؟ فَمَا كَانَ مِنَ الأَبِ إِلا أَنْ أَعْطَاهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى خِيَارٍ آخَرَ فَقَالَ: فَافْتَحْ دُكَّانَ بَزَّازٍ (بَائِعِ ثِيَابٍ) فَكَأَنَّ هَذَا الكَلامَ هَزَّهُ هَزًّا عَنِيفًا لَكِنْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْرَهَ أَوْ يُضْرَبَ أَوْ يُؤَنَّبَ أَوْ يُعَاقَبَ، فَقَالَ: تَقُولُ هَذَا وَأَنَا ابْنُ قَاضِي القُضَاةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى العَلْمِ حَتَّى نَالَ مِنْهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ.

وَلِذَا.. فَإِنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ الإِنْسَانَ لِيَتَحَمَّلَ مَسْؤُولِيَّةً عَظِيمَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1]، وَنَبِيُّنَا ﷺ عَلَّمَنَا أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مَسْؤُولٌ حَسْبَ مَوْقِعِهِ وَمَكَانِهِ فِي المُجْتَمَعِ، قَالَ ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[2].

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

أيها الآباء :

عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ أَنَّكُمْ لا تَدُومُونَ لَهُمْ، عَلِّمُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيُصْبِحُونَ فِي يَوْمٍ مَا أَزْوَاجًا وَأَرْبَابَ أُسَرٍ وَمُوَظَّفِينَ وَقَادَةَ مُسْتَقْبَلٍ، وَلِهَذَا كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَمْ يُولَدُوا لِيُتْرَكُوا سُدًى، إِنَّمَا الحَيَاةُ حُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ، وَمَهَامٌّ وَمُسْؤُولِيَّاتٌ يَنْبَغِي أَنْ تُرَاعَى جَمِيعُهَا وَتَعْطَى حَقَّهَا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

كُلُّ المِهَنِ أَشْرَفُ مِنْ البَطَالَةِ :

إِنَّ الإِسْلامَ يَمْقُتُ الكَسَلَ، وَيُحَارِبُ التَّوَاكُلَ وَلا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ المُؤْمِنُ ضَعِيفاً فَيُسْتَذَلَّ أَوْ مُحْتَاجاً فَيُطْمَعَ فيه، أَوْ مُتَقَاعِساً فَيَتَخَلَّفَ، كَمَا يُنَفِّرُ الإِسْلامُ مِنْ العَجْزِ وَالبَطَالَةِ .

وَلَقَدْ وَرَدَتْ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَمْثِلَةٌ تُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَى وَقِيمَتَهُ، وَتَصِفُ الأَنْبِياءَ وَالرُّسُلَ- عليهم السلام- بِأَنَّهُمْ كَانُوا ذَوِي حِرَفٍ وَصِنَاعَاتٍ بِالرَّغْمِ مِنْ مَسْؤولِيَّاتِهِمْ المُهِمَّةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ الوَاحِدِ لأَنَّهُ ـ تَعَالَى ـ قَدْ اخْتَارَهُمْ أَنْ يَحْتَرِفُوا، وَأَنْ يَكْتَسِبُوا قُوتَهُمْ بِعَرَقِ جَبِينِهِمْ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ-**

عليه السلام- كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمِلَ يَدِهِ»[١]، وَهَذَا نُوحٌ- عليه السلام- كَانَ يَصْنَعُ السُّفُنَ وَتِلْكَ مِهْنَةُ النَّجَّارِينَ، وَمُوسَى- عليه السلام- رَعَى الغَنَمَ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ رَعَى الغَنَمَ لأَهْلِ مَكَّةَ وَكَذَلِكَ تَاجَرَ فِي مَالِ خَدِيجَةَ- رضي الله عنها- قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ نِعْمَ الصَّادِقُ الأَمِينُ.

كَمَا أَنَّ شَرَفَ العَمَلِ نَاتِجٌ مِنْ شَرَفِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى اسْتِدَامَةِ النِّعْمَةِ، وَإِشْبَاعِ الحَاجَاتِ، وَمَا دَامَ هَذَا هُوَ الهَدَفَ مِنَ العَمَلِ فَإِنَّ الحِرْفَةَ اليَدَوِيَّةَ لا تَقِلُّ أَهَمِّيَةً عَنِ العَمَلِ العَقْلِيِّ؛ لأَنَّ الهَدَفَ لَدَى المُحْتَرِفِ وَالمُفَكِّرِ وَالعَالِمِ وَاحِدٌ، وَلِذَا نَجِدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ عُمَرَ- رضي الله عنهما- يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُؤْمِنَ المُحْتَرِفَ**»[٢] وَيَقُولُ فِيمَا رَوَتْهُ عَنْهُ عَائِشَةُ- رضي الله عنها: «**مَنْ أَمْسَى كَالاً مِنْ عَمَلِ يَدِهِ أَمْسَى مَغْفوراً لَهُ**»[٣].

وَلَقَدْ وَعَدَ اللهُ العَامِلِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ لِكَسْبِ عَيْشِهِمْ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢٣٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٠٤).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٥٢٠)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٨٥).

بِالجَزَاءِ الأَوْفَى يَوْمَ القِيامَةِ، فَضْلاً عَمَّا يَكْسِبُهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ نِعْمَةٍ.

الدروس المستفادة من الحكاية:

١- الأَبُ يَمْلُكُ قَلْبًا نَاصِعَ البَيَاضِ لَيْسَ فِيهِ شَائِبَةُ حِقْدٍ وَلا حَسَدٌ وَلا كَرَاهِيةٌ وَلا بُغْضٌ تِجَاهَ أَبْنَائِهِ.

٢- إِنَّ مَبْدَأَ تَحَمُّلِ المَسْؤُولِيَّةِ مَبْدَأٌ يَتِمُّ تَعَلُّمُهُ وَالتَّدَرُّبُ عَلَيْهِ عِنْدَ الإِنْسَانِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، وَهَذَا يَضَعُ مَسْؤُولِيَّةَ تَعْلِيمِ «تَحَمُّلِ المَسْؤولِيَّةِ عِنْدَ الأَبْنَاءِ» عَلَى كَاهِلِ أَهْلِيهِمْ.

٣- عَلَى الآبَاءِ أَنْ يُعَلِّمُوا أَبْنَاءَهُمُ أَنَّهُمْ لا يَدُومُونَ لَهُمُ، وَأَنَّهُمُ سَيُصْبِحُونَ فِي يَوْمٍ مَا أَزْوَاجًا وَأَرْبَابَ أُسَرٍ وَمُوَظَّفِينَ وَقَادَةَ مُسْتَقْبَلٍ، وَلِهَذَا كَانَ عَلَيْهِمُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمُ لَمْ يُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَمْ يُولَدُوا لِيُتْرَكُوا سُدًى.

٤- إِنَّ الإِسْلَامَ يَمْقُتُ الكَسَلَ، وَيُحَارِبُ التَّوَاكُلَ وَلا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ المُؤْمِنُ ضَعِيفاً فَيُسْتَذَلَّ أَوْ مُحْتَاجاً فَيُطْمَعَ فيه، أَوْ مُتَقَاعِساً فَيَتَخَلَّفَ، بَلْ يَأْمُرُ بِالعَمَلِ وَالجِدِّ فِي كُلِّ كَسْبٍ طَيِّبٍ.

[١٨]

أَحْسِنِ الأدَبَ مَعَ أبيكَ

أَحْسِنِ الأَدَبَ مَعَ أَبِيكَ

عَنْ أَبِي غَسَّانَ الضَّبِّيِّ قَالَ: خَرَجْتُ أَمْشِي مَعَ أَبِي بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَلَقِيَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ لِي: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: أَبِي. فَقَالَ: لا تَمْشِ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيكَ، وَلَكِنِ امْشِ خَلْفَهُ أَوْ إِلَى جَنْبِهِ، وَلا تَدَعْ أَحَداً يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَلا تَمْشِ فَوْقَ إِجَارٍ[1] أَبُوكَ تَحْتَهُ، وَلا تَأْكُلْ عِرقاً[2] قَدْ نَظَرَ أَبُوكَ إِلَيْهِ لَعَلَّهُ قَدِ اشْتَهَاهُ[3].

فَنُّ بِرِّ الوَالِدَيْنِ

كَمْ نَسْمَعُ فِي زَمَانِنَا عَنِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ فُنُونِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ! وَكَمْ نَسْمَعُ عَنِ الَّذِينَ يَعْقِدُونَ دَوَرَاتٍ فِي فَنِّ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، وَفَنِّ التَّعَامُلِ مَعَ الْجُمْهُورِ، وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ الأَصْدِقَاءِ، وَرُقِيِّ التَّعَامُلِ مَعَ الزَّوْجِ أَوِ الزَّوْجَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الدَّوَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ! وَلَكِنْ لِلأَسَفِ قَلِيلاً مَا نَسْمَعُ عَنْ (فَنِّ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ) مَعَ أَنَّهُ أَصْلُ التَّعَامُلِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَأَحَقُّ

(١) أي سطح.

(٢) عظم عليه شيء من اللحم.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦٨٥٧)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٣٠٦).

مَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ الْمُسْلِمُ فِيهَا.

وَلَوْ سَأَلْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا لأَقَرَّ بِحُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَحُسْنِ الأَدَبِ مَعَهُمَا وَوُجُوبِ بِرِّهِمَا، لَكِنْ إِذَا تَتَبَّعْنَا كَيْفِيَّةَ تَطْبِيقِ هَذِهِ الْحُقُوقِ، وَتَطْبِيقِ تَفَاصِيلِهَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ لَوَجَدْنَا خَلَلاً كَبِيراً وَتَقْصِيراً، سَبَبُهُ الْغَفْلَةُ وَالإِلْفُ وَالْعَادَةُ، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِاللهِ وَرَسُولِهِ يَشْعُرُ بِالأَسَى وَالْحُزْنِ لِمَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ مِنْ قَصِصِ عُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِبِرِّهِمَا.

وَهَا هُوَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ يُرْشِدُ هَذَا الرَّجُلَ إِلَى بَعْضِ الأُمُورِ الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا، وَرُبَّمَا يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ الأَبْنَاءِ فِي زَمَانِنَا.

لِيُذَكِّرْ بَعْضُنَا بَعْضاً:

أَبْنَائِي وَأَحْبَابِي:

إِنَّنَا فِي زَمَنٍ قَدْ عَظُمَتْ غُرْبَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ كُرْبَتُهُ، فَلَمْ يَرْحَمْ بَعْضُ الأَبْنَاءِ دُمُوعَ الآبَاءِ، وَلَمْ تَرْحَمْ بَعْضُ الْبَنَاتِ شَفَقَةَ الأُمَّهَاتِ، إِنَّنَا أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَلَّ فِيهِ الْبِرُّ، وَازْدَادَ فِيهِ الْعُقُوقُ وَالشَّرُّ، كَمْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُذَكِّرُنَا فِيهِ بِحَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَعَظِيمِ الأَجْرِ لِمَنْ بَرَّهُمَا!

اثْنَانِ إِذَا ذَكَرْتَهُمَا ذَكَرتَ الْبِرَّ وَالإِحْسَانَ، اثْنَانِ إِذَا ذَكَرتَهُمَا أَسْعَفَتْكَ بِالدُّمُوعِ الْعَيْنَانِ، مَضَتْ أَيَّامُهُمَا، وَانْقَضَى شَبَابُهُمَا، وَبَدَا لَكَ مَشِيبُهُمَا، وَقَفَا عَلَى عَتَبَةِ الدُّنْيَا وَهُمَا يَنْتَظِرَانِ مِنْكَ قَلْبًا رَقِيقًا، وَبِرًّا عَظِيمًا، وَعَيْناً سَاهِرَةً، وَقَفَا يَنْتَظِرانِ مِنْكَ وَفَاءً وَبِرًّا، فَالْجَنَّةُ لِمَنْ بَرَّهُمَا، وَالنَّارُ لِمَنْ عَقَّهُمَا، فَطُوبَى لِمَنْ أَحسَنَ إِلَيْهِمَا، وَطُوبَى لِمَنْ أَضْحَكَهُمَا، وَطُوبَى لِمَنْ أَعَزَّهُمَا، وَطُوبَى لِمَنْ أَكْرَمَهُمَا، وَطُوبَى لِمَنْ خَفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الرَّحْمَةِ وَالذُّلِّ وَالإِحْسَانِ، وَتَذَكَّرَ مَعَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْهُمَا مِنْ بِرٍّ وَعَطْفٍ وَحَنَانٍ، طُوبَى لِمَنْ أَسْهَرَ لَيْلَهُ، وَقَضَى نَهَارَهُ، وَأَضْنَى جَسَدَهُ فِي حُبِّهِمَا، طُوبَى لِمَنْ شَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ فِي بِرِّهِمَا، فَمَا خرَجَا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَقَدْ كَتَبَ اللهُ لَهُ رِضَاهُمَا.

مَهْمَا فَعلتَ لَنْ تؤَدِّي حقهُمَا:

إِنَّ الْقَلَمَ لَيَعْجَزُ عَنْ التَّحْبِيرِ، وَإِنَّهُ لَيُلْجَمُ أَيْضاً عَنِ التَّسْطِيرِ، مَتَى مَا أَرَادَ شَيْئاً مِنَ التَّعْبِيرِ عَنْ حُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَفَضْلِهِمَا الْعَمِيمِ وَبَثِّ حَنِينِ الْقَلْبِ وَأَشْجَانِ الْفُؤَادِ وَسَلْوَةِ الرُّوحِ بِهِمَا، وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّهُ مَكَثَ الدَّهْرَ كُلَّهُ مُحَاوَلَةً لما أَدَّى مجازَاةَ طَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ طَلَقَاتِ الْوِلادَةِ، أَوْ شُكْرَ لَيْلَةِ سَهَرٍ وَاحِدَةٍ وَقَلَقِهَا، أَوْ نَزِيفِ قَلْبِ الأَبِ أَلَمًا لِمُجَرَّدِ سَمَاعِ أَنِينِ طِفْلِهِ المرِيضِ السَّقِيمِ.

أَيُّهَا الابْنُ البَارُّ بِوَالِدَيْهِ:

إِحْسَانُ وَالِدَيْكَ إِلَيْكَ عَظِيمٌ، وَفَضْلُهُمَا عَلَيْكَ سَابِقٌ، تَأَمَّلْ حَالَ صِغَرِكَ، وَتَذَكَّرْ ضَعْفَ الطُّفُولَةِ، حَمَلَتْكَ أُمُّكَ فِي أَحْشَائِهَا، وَلَمْ يَزِدْهَا نُمُوُّكَ إِلا ثِقْلاً وَضَعْفًا، وَعِنْدَ الْوَضْعِ رَأَتِ الموْتَ بِعَيْنَيْهَا، وَلَكِنْ لما رَأَتْكَ بِجَانِبِهَا سُرْعَانَ مَا نَسِيَتْ آلامَهَا، وَعَلَّقَتْ فِيكَ جَمِيعَ آمَالِهَا، رَأَتْ فِيكَ بَهْجَةَ الْحَيَاةِ وَزِينَتَهَا، ثُمَّ شَغَلَتْ بِخِدْمَتِكَ لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا، تُغَذِّيكَ بِصِحَّتِهَا، طَعَامُكَ دَرُّهَا، وَبَيْتُكَ حِجْرُهَا، وَمَرْكَبُكَ يَدَاهَا وَصَدْرُهَا وَظَهْرُهَا، تُحِيطُكَ وَتَرْعَاكَ، تَجُوعُ لِتَشْبَعَ أَنْتَ، وَتَسْهَرُ لِتَنَامَ أَنْتَ، فَهِيَ بِكَ رَحِيمَةٌ، وَعَلَيْكَ شَفِيقَةٌ، إِذَا غَابَتْ عَنْكَ دَعَوْتَهَا، وَإِذَا أَعْرَضَتْ عَنْكَ نَاجَيْتَهَا، وَإِذَا أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ اسْتَغَثْتَ بِهَا، تَحْسِبُ كُلَّ الْخَيْرِ عِنْدَهَا، وَتَظُنُّ أَنَّ الشَّرَّ لا يَصِلُ إِلَيْكَ إِذَا ضَمَّتْكَ إِلَى صَدْرِهَا أَوْ لَحَظَتْكَ بِعَيْنِهَا.

أَمَّا أَبُوكَ فَأَنْتَ لَهُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ، يَكِدُّ وَيَسْعَى لأَجْلِكَ، وَيَدْفَعُ عَنْكَ صُنُوفَ الأَذَى، يَنْتَقِلُ فِي الأَسْفَارِ، يَجُوبُ الفَيَافِي وَالقِفَارَ، وَيَتَحَمَّلُ الْـمَشَاقَّ وَالأَخْطَارَ؛ بَحْثًا عَنْ لُقْمَةِ الْعَيْشِ، يُنْفِقُ عَلَيْكَ وَيُصْلِحُكَ وَيُرَبِّيكَ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِ هَشَّ لِرُؤْيَتِكَ، وَإِذَا أَقْبَلْتَ إِلَيْهِ بَشَّ لِمَحَبَّتِكَ وَمَوَدَّتِكَ، وَإِذَا خَرجَ تَعَلَّقْتَ بِهِ، وَإِذَا حَضَرَ

احْتَضَنْتَ حِجْرَهُ وَصَدْرَهُ، فَتَرَاهُ يَنْسَى هُمُومَهُ وَغُمُومَهُ وَتَعَبَهُ لأُنْسِهِ بِضَمَّتِكَ وَقُبْلَتِكَ.

أَفَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الإِحْسَانِ تَنْسَاهُمَا، وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا الْعَنَاءِ وَالشَّقَاءِ تُسِيءُ إِلَيْهِمَا، وَتَجْعَلُ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ لَكَ:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَعِلْتُكَ يَافِعاً ... تعلُّ بِمَا أُدْنِي إِلَيْكَ وَتَنْهَلُ

إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبِتْ ... لِشَكْوَاكَ إِلا سَاهِراً أَتَمَلْمَلُ

كَأَنِّي أَنَا المطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي ... طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمِلُ

فَلَما بَلَغْتُ السِّنَّ وَالْغَايَةَ الَّتِي ... إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ مِنْكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جَزَائِي مِنْكَ غِلْظَةً وَفَظَاظَةً ... كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمنْعِمُ المتَفَضِّلُ

فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِي ... فَعَلْتَ كَمَا الجارُ المجَاوِرُ يَفْعَلُ

فَأَوْلَيْتَنِي حَقَّ الْجِوَارِ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلَيَّ بِمَالٍ دُونَ مَالِكَ تَبْخَلُ

الْبِرُّ لا يَخضعُ لِلْمُؤثرات:

أَيُّهَا الابْنُ الحبِيبُ:

سَوَاءٌ كُنْتَ كَبِيراً أَمْ صَغِيراً، سَوَاءٌ كُنْتَ وَزِيراً أَمْ أَجِيراً، سَوَاءٌ كُنْتَ غَنِياً أَمْ فَقِيراً، سَوَاءٌ كُنْتَ مَسْؤُولاً كَبِيراً أَمْ إِنْسَاناً عَادِياً، فَمَلامِحُ الْبِرِّ لا تَتَغَيَّرُ مَهْمَا عَلا شَأْنُكَ، وَمَهْمَا عَظُمَ أَوْ كَثُرَ

سُلْطَانُكَ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْمُوَ إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْبِرَّ لأَبِيكَ لا بُدَّ لَكَ أَنْ تُتْقِنَ فَنَّ التَّعَامُلِ مَعَ أَبِيكَ، وَذَلِكَ مِنْ خِلالِ الأُمُورِ التَّالِيَةِ:

١- نَادِ وَالِدَكَ بِاسْمِ الأُبُوَّةِ، فَهِيَ عِنْدَهُ غَايَةُ المنَى، وَهِيَ مِنْكَ لَهُ أَسْمَى مِنْ كُلِّ الأَلْقَابِ وَالْكُنَى، وَالخَطَأُ كُلُّ الخَطَأِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ بَعْضُ النَّاسِ بِحُكْمِ رَفْعِ الْكُلْفَةِ مُنَادَاتُهُ وَالِدَهُ بِأَبِي فُلانٍ، وَأَقْبَحُ مِنْهُ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِالشَّايِبِ أَوِ الْعَجُوزِ، وَهَذَا سُوءُ أَدَبٍ مَعَهُ، وَانْظُرْ إِلَى أَدَبِ الخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ- عليه السلام- فِي نِدَائِهِ اللَّطِيفِ لِوَالِدِهِ الْكَافِرِ (يَا أَبَتِ) وَيُكَرِّرُهَا عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَبِالْعِبَارَةِ اللَّطِيفَةِ نَفْسِهَا. فَمَا أَجْمَلَهُ مِنْ أَدَبٍ! وَمَا أَكْمَلَهُ مِنْ تَعَامُلٍ!

٢- سَلِّمْ عَلَى وَالِدِكَ بِخُصُوصِيَّةٍ تَلِيقُ بِمَكَانَتِهِ وَمَقَامِهِ عِنْدَكَ، وَذَلِكَ بِتَقْبِيلِ الرَّأْسِ وَالْيَدِ، وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الْوَفَاءِ لَهُ. وَإِنَّكَ لَتَعْجَبُ مِنِ ابْنٍ يُسَلِّمُ عَلَى وَالِدِهِ كَمَا يُسَلِّمُ عَلَى صَدِيقِهِ، فَأَيْنَ حَقُّ الْوَالِدِ؟ وَأَيْنَ إِكْرَامُهُ؟

٣- أَظْهِرِ الذُّلَّ وَالأَدَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ امْتِثَالاً لأَمْرِ اللهِ- عز وجل: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾(١) وَذَلِكَ بِخَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَ الْحَدِيثِ مَعَهُ وَعَدَمِ إِحْدَادِ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَقَدْ يَقَعُ خِلافُ ذَلِكَ

(١) الإسراء: ٢٤.

عِنْدَ النَّقَاشِ دُونَ قَصْدٍ، وَلَكِنَّ المؤمنَ الحَرِيصَ يَحْذَرُ مِنْ ذَلِكَ لِخُطُورَتِه.

٤- تَأَدَّبْ فِي الْجُلُوسِ مَعَ وَالِدِكَ، وَلا تَكُنْ كَمَا يَفْعَلُ الْبَعْضُ -هَدَاهُمُ اللهُ- يَمُدُّ رِجْلَيْهِ أَمَامَ وَالِدِهِ أَوْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ جَالِساً وَأَبُوهُ وَاقِفٌ. فَأَيُّ أَدَبٍ هَذَا وَأَيُّ خُلُقٍ؟

٥- تَأَدَّبْ فِي السَّيْرِ مَعَهُ، فَلا تَمْشِ أَمَامَهُ وَلا تَدْخُلْ مَكَاناً قَبْلَهُ، بَلْ مِنَ الأَدَبِ التَّأَخُّرُ قَلِيلاً عَنْهُ وَالمسَارَعَةُ بِفَتْحِ الْبَابِ عِنْدَ دُخُولِهِ، فَفِي ذَلِكَ أَدَبٌ وَبِرٌّ وَإِحْسَانٌ.

٦- احْرِصْ عَلَى الْجُلُوسِ مَعَهُ وَمُحَادَثَتِهِ بِلُطْفٍ وَحَنَانٍ وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِ بِطَرَائِفِ الْحَدِيثِ وَجَمِيلِ النَّوَادِرِ وَالْحِكَمِ، فَكَمْ لَكَ مِنْ أَجْرٍ بِإِشَاعَةِ الابْتِسَامَةِ عَلَى مُحَيَّاهُ؟ وَهَذَا مِنَ الْبِرِّ المغْفَلِ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الأَبْنَاءِ إِلا مَا نَدَرَ، فَقَدْ تَجِدُ الْبَعْضَ خَفِيفَ الظِّلِّ، كَثِيرَ المرَحِ مَعَ أَصْدِقَائِهِ، فَإِذَا جَلَسَ مَعَ وَالِدِهِ فَكَأَنَّهُ فِي مُهِمَّةٍ رَسْمِيَّةٍ، لا ضَحِكَ وَلا تَبَسُّمَ وَلا دُعَابَةَ. فَأَيْنَ الْبِرُّ مِنْ هَذَا؟

٧- تَفَقَّدْ أَحْوَالَهُ دَائِماً بِالزِّيَارَةِ وَالسُّؤَالِ وَالاتِّصَالِ. وَإِنَّكَ لَتَعْجَبُ مِنِ ابْنٍ يَغِيبُ عَنْ وَالِدَيْهِ بِالأَيَّامِ وَهُوَ يَسْكُنُ مَعَهُمَا فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلا تَتَعَلَّلْ بِكَثْرَةِ المشَاغِلِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَوْلَى

مِنْهُمَا، فَتَمَتَّعْ بِالجُلُوسِ مَعَهُ قَبْلَ أَنْ تَفْقِدَهُ فَتَنْدَمَ، وَلاتَ حِينَ مَنْدَمٍ، فَكَمْ مِنَ الأَبْنَاءِ مَنْ يُواظِبُ عَلَى جَلَسَاتِ الأَصْدِقَاءِ أَوِ اجْتِمَاعَاتِهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَحْرِصُ عَلَى رِيَاضَةِ المشْيِ كُلَّ مَسَاءٍ، وَلا يَزُورُ وَالِدَهُ إِلا فِي الأُسْبُوعِ مَرَّةً وَرُبَّمَا لا يَزُورُهُ إِلا فِي الشَّهْرِ أَوِ الشَّهْرَيْنِ! أَمَّا إِذَا كَانَ بَعِيداً فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَعَاهَدَهُ بِالاتِّصَالِ كُلَّ يَوْمٍ لِتَسْأَلَ عَنْ حَالِهِ وَتَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ وَتُشْعِرَهُ بِاهْتِمَامِكِ بِهِ. فَبِذَلِكَ تَلْتَمِسُ بَرَكَتَهُ وَتَحُوزُ عَلَى رِضَاهُ وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ مَطْلَبٍ!!

٨- تَلَمَّسْ بَرَكَةَ وَالِدَيْكَ بِطَلَبِ الدُّعَاءِ مِنْهُمَا، فَدَعْوَةُ الْوَالِدِ مُسْتَجَابَةٌ، وَالابْنُ البَارُّ سَيَفُوزُ بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَسَيَجْنِي ثَمَرَةَ ذَلِكَ فِي صِحَّتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَمَالِهِ.

٩- ادْعُ لَهُمَا كَمَا أَمَرَ المولَى بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1] وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ البِرِّ، وَهُوَ مِنَ الأَجْرِ الدَّائِمِ لَهُمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا «**أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ**»[2] وَبَعْدُ فَهَنِيئاً لِمَنْ كَانَ لَهُ وَالِدَانِ يَنْعَمُ بِقُرْبِهِمَا وَيَسْعَدُ بِبِرِّهِمَا، وَهِيَ نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ لا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلا مَنْ حُرِمَهَا.

---

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).

الدروس المستفادة من الحكاية:

١ - بِرُّ الْوَالِدَيْنِ فَنٌّ وَإِبْدَاعٌ، فَأَبْدِعْ فِي بِرِّهِمَا وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا.

٢ - عَلَى الابْنِ أَنْ يَكُونَ دَائِماً فِي أَكْمَلِ وُجُوهِ الأَدَبِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ لِوَالِدَيْهِ.

٣ - يَجِبُ عَلَى الأَبْنَاءِ أَنْ يَجْعَلُوا مِنْ آبَائِهِمْ أَعَزَّ أَصْدِقَائِهِمْ وَخِلانِهِمْ، مَعَ عَدَمِ نِسْيَانِ حُقُوقِهِمْ.

[١٩]

صِلْ وُدَّ أبيكَ

صِلْ وُدَّ أَبيكَ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيْهِ إِذَا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وَعِمَامَةٌ يَشُدُّ بِهَا رَأْسَهُ. فَبَيْنَا هُوَ يَوْمًا عَلَى ذَلِكَ الْحِمَارِ إِذْ مَرَّ بِهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ له ابن عمر: أَلَسْتَ ابْنَ فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَعْطَاهُ الْحِمَارَ وَقَالَ: ارْكَبْ هَذَا، وَالْعِمَامَةَ - قَالَ- اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللهُ لَكَ أَعْطَيْتَ هَذَا الأَعْرَابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيْهِ وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَكَ!! فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**». وَإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ[1].

ابْنُ عُمَرَ يَبِرُّ أَبَاهُ بَعْدَ مَوْتِه :

إِنَّ مِنْ رَوَائِعَ هَذَا الدِّينِ تَمْجِيدَهُ لِلْبِرِّ حَتَّى صَارَ يُعْرَفُ بِهِ، فَحَقّاً إِنَّ الإِسْلامَ هُوَ دِينُ الْبِرِّ الذِي بَلَغَ مِنْ شَغَفِهِ بِهِ أَنْ هَوَّنَ عَلَى أَبْنَائِهِ كُلَّ صَعْبٍ فِي سَبِيلِ ارْتِقَاءِ قِمَّتِهِ الْعَالِيَةِ، فَصَارَتْ فِي رِحَابِهِ أَجْسادُهُمْ كأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَكِنَّ قُلُوبَهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِالسَّمَاءِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٢).

وَإِنَّ بِرَّ الوَالِدَيْنِ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ الكَرِيمَةِ والخِلالِ الجَمِيلَةِ، وَلَوْ لَمْ تَأْمُرْ بِهِ الشَّرِيعَةُ لَكَانَ مِدْحَةً بَيْنَ النَّاسِ لجَلِيلِ قَدْرِهِ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ، وَسُمُوِّ مَكَانَةِ المُتَّصِفِينَ بِهِ، كَيْفَ لا وَهُوَ عِلاوَةً عَلَى ذَلِكَ تُكفَّرُ بِهِ السَّيِّئَاتُ، وَتُجَابُ الدَّعَوَاتُ عِنْدَ رَبِّ البَرِيَّاتِ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ وَتَطِيبُ الحَيَاةُ وَيَبْقَى الذِّكْرُ الحَسَنُ بَعْدَ المَمَاتِ.

دُرُوسُ الكِبَارِ عَظِيمَةٌ نَافِعَةٌ :

الكِبَارُ دَائِمًا يُعْطُونَنَا دُرُوساً عَظِيمَةً، وَيُفَضِّلُونَ أَنْ تَكُونَ دُرُوساً عَمَلِيَّةً وَاقِعِيَّةً، لا رَسَائِلَ خُطَبٍ وَمَوَاعِظَ؛ ولا دُرُوس وَعْظٍ وَإِرْشادٍ لا تَمُتُّ للواقِعِ بِصِلَةٍ؛ فَلا عَجَبَ أَنْ يَمْتَدَّ أَثَرُهَا لِمِئَاتِ السِّنِينَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الرَّسَائِلُ يَحْفَظُهَا التَّارِيخُ، وَتَتَنَاقَلُهَا الأَجْيَالُ، وَيَتَدَارَسُهَا طُلابُ العِلْمِ.

إِنَّ الكِبَارَ لا يَتْرُكُونَ أَمْراً فِيهِ مَزِيدٌ مِنَ البِرِّ وَالوَفَاءِ لِحُقُوقِ الوَالِدَيْنِ إلا وَسَأَلُوا عَنْهُ وَطَبَّقُوهُ؛ سَمِعُوا النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ**» فَإِذَا بِهِمْ يُجَسِّدُونَهُ وَيُطَبِّقُونَهُ وَيَضْرِبُونَ بِهِ أَعْظَمَ المَثَلِ.

وَيَا لَهَا مِنْ مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ وَمَكَانَةٍ عَظِيمَةٍ أَنْ تَكُونَ النُّفُوسُ بِهَذَا

الْمُسْتَوَى الأخْلاقِيِّ الرَّاقِي فِي الأَدَبِ مَعَ الآبَاءِ، وَالْمُبَالَغَةِ الْمَطْلُوبَةِ فِي الوَفَاءِ لَهُمَا حَتَّى وَلَوْ بَعْدَ الْمَمَاتِ.

وَهَا هُوَ الدَّلِيلُ العَمَلِيُّ بَيْنَ أَيْدِينا فَإِنَّ التَّارِيخَ يَنْقُلُ لَنَا صُورَةً رَائِعَةً، وَأُنْمُوذَجاً عالياً مِنْ نَمَاذِجِ البِرِّ بِالوَالِدَيْنِ، وَهَذَا البِرُّ بَطَلُهُ هو عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ- رضي الله عنهما، وَلَكِنَّ بِرَّهُ هَذَا لَمْ يَكُنْ مُوَجَّهاً مُبَاشَرَةً إِلَى عُمَرَ، بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي حَيَاةِ عُمَرَ بَلْ بَعْدَ وَفَاتِهِ؛ فَإِنَّهُ ما أَنْ رَأَى هَذَا الأَعْرَابِيَّ حَتَّى سَارَعَ إِلَى إِكْرَامِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَإِعْطَائِهِ أَعَزَّ ما كَانَ عِنْدَهُ، وَلما قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ وَعُوتِبَ عَلَى فِعْلِهِ أَتَدْرُونَ مَا قَالَ؟

إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ مِنْ أَعَزِّ أَصْحَابِي، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ لَهُ عَلَيَّ فَضْلاً سابِقاً، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ كَانَ صَدِيقاً لِعُمَرَ. بَلْ قَالَ: إِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقاً لِعُمَرَ، وَأَكَّدَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ البِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ بِمَا ذَكَرَهُ مِنْ حَدِيثِ النبي ﷺ.

حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْبِرِّ وَالإِيمَانِ :

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ:

إِنَّهُ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِنْسَانٍ آخَرَ مَوَدَّةٌ وَمَحَبَّةٌ وَأُلْفَةٌ، فَإِنَّ مِنَ الإِيمانِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ أَلا يَنْسَاهُ وَلَوْ كَانَ مَيِّتاً، فَيَا أَخِي الْحَبِيبُ،

أَمَا كَانَتْ لَكَ عَلاقَةٌ وَمَوَدَّةٌ مَعَ إِنْسَانٍ مَا؟ أَمَا تَذْكُرُ ذَلِكَ الإِنْسانَ الَّذِي كَانَ سَبَباً فِي وُجُودِكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، إِنَّهُ أَبُوكَ، أَبُوكَ الَّذِي عِشْتَ مَعَهُ أَجْمَلَ سِنِي عُمْرِكَ، أَبُوكَ الَّذِي كَانَ لَكَ النُّورَ الَّذِي تَسْتَضِيءُ بِهِ، وَالْعَيْنَ الَّتِي تَرَى بِهَا، وَالأُذُنَ الَّتِي تَسْمَعُ بِهَا، بَلْ أَبُوكَ الَّذِي كَانَ سَبِيلَ الْحَيَاةِ الَّتِي حَيِيتَهَا وَمَا زِلْتَ تَحْيَا بِهَا.

بِالأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ يَمْلأُ الْبَيْتَ بِذِكْرِهِ...

بِالأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ هُوَ الَّذِي يَكِدُّ وَيَسْعَى وَيَعْمَلُ لِكَيْ تَعِيشَ وَتَكْبُرَ وَتَنْمُوَ وَتَحْيَا فِي عِزَّةٍ وَكَرَامَةٍ وَهَنَاءَةِ عَيْشٍ...

وَبِالأَمْسِ الْقَرِيبِ كَانَ ذَلِكَ الأَبُ يَلْتَفُّ حَوْلَهُ الأَبْنَاءُ وَالأَحْفَادُ...

ذِكْرَيَاتٌ لا تُنْسَى، وَوَشَائِجُ قُرْبَى لا تَبْلَى، فَيَا أَيُّهَا الابْنُ، هَلْ تَذْكُرُ أَبَاكَ الآنَ أَمْ أَنَّكَ لا تَذْكُرُهُ؟ إِنَّ مِنْ حُسْنِ الْعَهْدِ أَلا تَنْسَاهُ، وَمِنْ جَمِيلِ الْبِرِّ أَلا تُفَارِقُكَ ذِكْرَاهُ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَدْعُو لَهُ وَتَسْتَغْفِرُ لَهُ، وَتَتَصَدَّقَ عَنْهُ، وَتَسْأَلَ عَنْ أَصْدِقَائِهِ وَأَحْبَابِهِ وَرُفَقَائِهِ، وَأَهْلِ وُدِّهِ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَيْفَ هُمْ؟ وَمَا هِيَ أَخْبَارُهُمْ؟ تَزُورُهُمْ، تُهْدِيهِمْ، إِنْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ تُسَاعِدُهُمْ؛ حُبّاً لأَبِيكَ وَبِرّاً بِهِ، وَرِعَايَةً لِمَا كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَهَذَا- وَالله- بِرٌّ عَظِيمٌ، بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ

الْبِرِّ، قَالَ ﷺ: «**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**».

فَيَا أَيُّهَا الابْنُ البَارُّ :

جَدِّدِ الْعَهْدَ، وَاحْمِ الذِّكْرَيَاتِ الْحَسَنَةَ السَّالِفَةَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَبِيكَ.

عَلَيْكَ أَنْ تَبَرَّ أَهْلَ وُدِّ أَبِيكَ: انْظُرْ مَنْ كَانَ وَالِدُكَ يَوَدُّهُ فَعَلَيْكَ أَنْ تَوَدَّهُ...

انْظُرْ مَنْ كَانَ وَالِدُكَ يُقَدِّرُهُ فَعَلَيْكَ أَنْ تُقَدِّرَهُ...

انْظُرْ مَنْ كَانَ وَالِدُكَ يُوَقِّرُهُ فَعَلَيْكَ أَنْ تُوَقِّرَهُ وَتَحْتَرِمَهُ...

انْظُرْ مَنْ كَانَ وَالِدُكَ يُعْطِيهِ فَعَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَهُ...

انْظُرْ إِلَى أَهْلِ وُدِّ أَبِيكَ وَقَدِّمْ لَهُمْ كُلَّ بِرٍّ وَخَيْرٍ كَمَا كَانَ أَبُوكَ يَقُومُ بِذَلِكَ.

ابْحَثْ عَنْ وُدِّ أَبِيكَ وَأُمِّكَ سَوَاءٌ أَكَانَ أَبُوكَ أَمْ أُمُّكَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، أَوْ كَانَ أَبُوكَ أَمْ أُمُّكَ مَيِّتَيْنِ، ذَهَبَا إِلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى، وارْتَحَلا عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَلا بُدَّ مِنْ هَذَا، يَقُولُ ﷺ فِي حَدِيثٍ آخَرَ يَتَعَلَّقُ بِهَذَا كَمَا فِي الطَّبَرَانِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ: «**احْفَظْ وُدَّ أَبِيكَ لا تَقْطَعْهُ فَيُطْفِئُ اللهُ نُورَكَ**»[1]. أَيْ إِذَا قَطَعْتَهُ فَإِنَّ اللهَ سَيُطْفِئُ نُورَكَ، أَيِ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٠)، والطبراني في الأوسط (٨٦٣٣) وضعفه الألباني.

احْفَظْ مُحِبَّ أَبِيكَ بِالإِحْسَانِ لاسِيَّمَا بَعْدَ مَوْتِهِ وَلا تَهْجُرْهُ فَيُذْهِبُ اللهُ نُورَ إِيمَانِكَ.

وَهَا نَحْنُ الْيَوْمَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الأَنْوَارِ المصْطَنَعَةِ الَّتِي نُوقِدُهَا هُنَا وَهُنَاكَ، لَكِنَّ الظَّلامَ المعْنَوِيَّ يَكَادُ يُخَيِّمُ عَلَى كُلِّ الأُسَرِ الَّتِي نَرَاهَا وَعَلَى كُلِّ الْبُيُوتِ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبِّي، فَقَدْ خَلَتِ الْبُيُوتُ مِنَ الآبَاءِ وَالأُمَّهَاتِ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ الآبَاءُ والأُمَّهَاتُ فِي عِدَادِ الأَمْوَاتِ، إِمَّا بُنَاءً عَلَى رَغْبَةِ الزَّوْجَاتِ، أَوِ انْشِغالاً عَنْهُمْ بِمُتَطَلَّبَاتِ الْحَيَاةِ، وَكَذَلِكَ لِنِسْيَانِ الأَوْلادِ أَهْلَ وُدِّ وَالِدَيْهِمْ بَعْدَ المماتِ.

صُوَرٌ مِنْ حِفْظِ السَّلَفِ لِوُدِّ آبَائِهِمْ :

لَمْ يَكُنْ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ - رضي الله عنهما - صُورَةً فَرِيدَةً بَيْنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ - رضوان الله عليهم - فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ بَعْدَ المماتِ، بَلْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ جَمِيعاً، وَلَقَدْ نُقِلَتْ لَنَا صُوَرٌ كَثِيرَةٌ عَنْهُمْ فِي بِرِّهِمْ لآبَائِهِمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، فَعَبْدُ الله بْنُ سَلام رضي الله عنه كَانَ مُؤَاخِياً لأَبِي الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ بَيْنَهُمَا أُخُوَّةٌ وَمَحَبَّةٌ وَمَوَدَّةٌ، فَلَمَّا مَاتَ عَبْدُ الله بْنُ سَلامٍ ذَهَبَ وَلَدُهُ يوسُفُ إِلَى الشَّامِ؛ لِيَسْأَلَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ إِلا تَجْدِيداً لِلْعَهْدِ، وَرِعَايَةً لِلْحُرْمَةِ وَالأُلْفَةِ، وَتَأْدِيَةً

لِلْحُقُوقِ، فَإِنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ كَانَ مُحِبّاً لِعَبْدِ الله بْنِ سَلامٍ، فَجَاءَهُ يُوسُفُ وَهُوَ يُحْتَضَرُ، قَدْ قَارَبَ مُفَارَقَةَ الدُّنْيَا، فَفَرِحَ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ.

وَهَا هُوَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ - رضي الله عنهما - يُكَرِّرُ الأَمْرَ مَعَ أَبِي بُرْدَةَ، فَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: قَدِمْتُ المدِينَةَ فَأَتَانِي عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ فَقَالَ: أَتَدْرِي لِمَ أَتَيْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لا. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصِلَ أَبَاهُ فِي قَبْرِهِ فَلْيَصِلْ إِخْوَانَ أَبِيهِ بَعْدَهُ**»، وَإِنَّهُ كَانَ بَيْنَ أَبِي عُمَرَ وَبَيْنَ أَبِيكَ إِخَاءٌ وَوُدٌّ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَصِلَ ذَلِكَ(1).

مِنَ الأَبْنَاءِ مَنْ لا يَحْفَظُ وُدَّ أَبِيهِ:

أَيُّهَا المسْلِمُونَ:

لَيْسَ كُلُّ الأَبْنَاءِ هَكَذَا مَعَ آبَائِهِمْ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ، بَعْدَ وَفَاتِهِمَا حَتَّى الآنَ، وَلَمْ يُشْغِلْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا مِنْ عِشْرَةٍ وَعَطْفٍ وَحَنَانٍ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ أَخْلاقَ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ حُسْنِ الْعَهْدِ بِالْوَالِدَيْنِ. وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي هَذَا بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ.

---

(1) أخرجه أبو يعلى (٥٦٦٩)، وابن حبان (٤٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٠).

أَيُّهَا الأَبْنَاءُ المؤْمِنُونَ:

حُقَّ لَنَا - أَبْنَاءَ هَذَا الدِّينِ العَظِيمِ - أَنْ نَقِفَ الْيَوْمَ مَرْفُوعِي الرُّؤُوسِ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ الإسلامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى الْوَفَاءِ لِلآباءِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَجَمَّدَتْ فِيهِ قُلُوبُ بَعْضِ النَّاسِ حِينَ نَجِدُ أَحَدَهُمْ يَنْفَصِلُ عَنْ وَالِدَيْهِ مَتَى وَصَلَ لِسِنِّ الرُّشْدِ، وَمَا أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْهُمَا إلا وَانْقَطَعَ السُّؤَالُ والاطْمِئْنَانُ؛ فَلا نَظْرَةَ تَآلُفٍ أَوْ رَحْمَةٍ أَوْ رَأْفَةٍ لِلْوَالِدَيْنِ اللَّذَيْنِ أَفْنَيَا عُمْرَهُمَا فِي تَرْبِيَتِهِ حَتَّى اشْتَدَّ عُودُهُ وَقَوِيَ سَاعِدُهُ.

بَيْدَ أَنَّ هَؤُلاءِ قَدْ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةُ، وَتَرَبَّعَتْ فِي نُفُوسِهِمُ الْقَسْوَةُ، فَلَمْ يَعُدْ فِيهَا ذَرَّةُ حَيَاةٍ تُشْعِرُهُمْ بِلَحْظَةِ وَفَاءٍ وَاجِبَةٍ فِي حَقِّ وَالِدَيْهِمْ، حَتَّى امْتَلأَتْ دُورُ المسِنِّينَ بِالْعَجَائِزِ وَكِبَارِ السِّنِّ الَّذِينَ تَنَكَّرَ لَهُمْ ذَوُوهُمْ، وَلَمْ يَعُودُوا يَتَحَمَّلُونَ وُجُودَهُمْ بِجِوَارِهِمْ، بَلْ وَحَتَّى لَمْ يَجِدُوا الْوَقْتَ لِيَزُورُوهُمْ رَغْمَ أَنَّهُمْ فِي أَشَدِّ لَحَظَاتِ الاحْتِيَاجِ لِرِعَايَتِهِمْ.

الدروس المستفادة من الحكاية:

١- بِرُّ الْوَالِدَيْنِ لا يَنْقَطِعُ بِمَوْتِهِمَا.

٢- الْبِرُّ بِالْوَالِدَيْنِ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ، وَأَعْظَمُهَا بِرُّ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ.

٣- حِفْظُ الْعَهْدِ مَعَ كُلِّ النَّاسِ هُوَ مِنْ صَمِيمِ دِينِنَا وَإِيمَانِنَا.


[٢٠]
عَلِّمْهُم الْوَرَعَ

عَلَّمْهُم الْوَرَعَ

- كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يُقَسِّمُ تُفَّاحًا بَيْنَ النَّاسِ، فَجَاءَ ابْـنٌ لَهُ وَأَخَذَ تُفَّاحَةً مِنْ ذَلِكَ التُّفَّاحِ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ فَفَكَّ يَدَهُ، فَأَخَذَ تِلْكَ التُّفَّاحَةَ فَطَرَحَهَا فِي التُّفَّاحِ، فَذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ مُسْتَغِيثًا، فَقَالَتْ لَهُ: مَا لَكَ، أَيْ بُنَـيَّ؟ فَأَخْبَرَهَـا، فَأَرْسَـلَتْ بِـدِرْهَمَيْنِ فَاشْـتَرَتْ تُفَّاحًـا، فَأَكَلَتْ وَأَطْعَمَتْهُ، وَرَفَعَتْ لِعُمَرَ[1]، فَلَمَّا فَرَغَ مِمَّا بَـيْنَ يَدَيْـهِ دَخَـلَ إِلَيْهَا، فَأَخْرَجَتْ لَهُ طَبَقًـا مِـنْ تُفَّـاحٍ، فَقَـالَ: «مِـنْ أَيْـنَ هَـذَا يَـا فَاطِمَةُ؟» فَأَخْبَرَتْهُ. فَقَالَ: «رَحِمَكِ اللهُ، وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لأَشْتَهِيهِ»[2].

- وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ مُعَيْقِيبُ عَلَى بَيْتِ مَالِ عُمَـرَ، فَكَـنَسَ بَيْتَ المالِ يَوْماً، فَوَجَـدَ فِيـهِ دِرْهَمًـا، فَدَفَعَـهُ إِلَى ابْـنٍ لِعُمَـرَ. قَـالَ مُعَيْقِيبُ: ثُمَّ انْصَـرَفْتُ إِلَى بَيْتِـي، فَـإِذَا رَسُـولُ عُمَـرَ قَـدْ جَـاءَنِي يَدْعُونِي، فَجِئْتُ، فَإِذَا الدِّرْهَمُ فِي يَدِهِ، فَقَـالَ لِي: «وَيْحَكَ فِي هَـذَا الدِّرْهَمِ» يَا مُعَيْقِيبُ، أَوَجَدْتَ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: قُلْتُ: مَا

(١) رفعت لعمر، أي : أبقت له من التفاح ليأكله.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الورع (١/ ١٢٤) الدار السلفية – الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ – ١٩٨٨.

ذَاكَ يَا أَمِيرُ المؤْمِنِينَ؟ قَالَ: «أَرَدْتَ أَنْ تُخَاصِمَنِي أُمَّةُ مُحَمَّـدٍ ﷺ فِي هَذَا الدِّرْهَمِ»[1].

الثمرُ الطَّيِّبُ لا بُدَّ لهُ مِنْ رِعَايَةٍ طَيِّبَةٍ :

أَيُّهَا الآبَاءُ:

إِنَّ تَرْبِيَةَ الأَبْنَاءِ وَتَنْشِئَتَهُمْ مِثْلُ تَرْبِيَةِ الـزَّرْعِ، تَحْتَـاجُ مِنَّـا لِكُـلِّ رِعَايَةٍ وَعِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ، فَلِكَـيْ تَجْنِـيَ ثَمَـرًا طَيِّبًـا لا بُـدَّ أَنْ تَكُـونَ الأَرْضُ صَالِحَةً، وَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْبِذَارُ طَيِّبًـا، وَلا بُـدَّ أَنْ يَكُـونَ السَّقْيُ دَائِمًا غَيْرَ مُنْقَطِعٍ، وَهَكَذَا الأَوْلادُ إِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نَـرَاهُمْ قُـرَّةَ عَيْنٍ لَنَا فَلا بُدَّ أَنْ نَتَعَاهَدَهُمْ وَنُرَبِّيَهِمُ التَّرْبِيَةَ الإِسْلامِيَّةَ الصَّحِيحَةَ عَلَى المَبَادِئِ وَالأَخْلاقِ وَالْقِيَمِ السَّـامِيَةِ كَـيْ نَقِـيَهِمْ مِـنْ كُـلِّ مَـا يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَـاهُمْ، أَلَمْ يُخَاطِبْنَـا رَبُّنَـا بِقَوْلِـهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[2].

وَإِنَّ وِقَايَتَهُمْ مِنَ النَّارِ أَوَّلُ مَا تَتَطَلَّبُهُ مِنَّا أَنْ نُغَـذِّي أَجْسَـادَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ بِـمَالٍ حَـلالٍ، فَهُـمْ- وَاللهِ- فَاكِهَـةُ هَـذِهِ الـدُّنْيَا، وَهُـمْ عَصَافِيرُ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِـي نَعِـيشُ عَلَيْهَـا، فَـإِذَا كَانَـتِ الْفَاكِهَـةُ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الورع (١/ ١٢٦).

(٢) التحريم: ٦.

فَاسِدَةً مِنْ دَاخِلِهَا فَإِنَّ النَّفْسَ سَتَعَافُهَا، وَالْيَدَ سَتَقْذِفُهَا وَسَتُصْبِحُ مَنْبُوذَةً وَمَمْقُوتَةً لا اعْتِبَارَ لَهَا، وَإِذَا كَانَتِ الْعَصَافِيرُ تَسْرِي فِي أَجْسَادِهَا الأَمْرَاضُ، وَالْعِلَلُ تَنْخَرُ فِي عِظَامِهَا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُحَلِّقَ أَوْ تَطِيرَ، وَسَتُعَانِي حَتَّى تَمُوتَ وَيَكُونَ الْهَلاكُ مَصِيرَهَا.

وَالآبَاءُ عِنْدَمَا يَجْنُونَ المَالَ الْحَرَامَ بِأَيِّ طَرِيقٍ مِنَ الطُّرُقِ غَيْرِ المَشْرُوعَةِ، وَيُغَذُّونَ أَوْلادَهُمْ مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ بِذَلِكَ يَضَعُونَ لَهُمُ السُّمَّ النَّقَّاعَ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَيُغَذُّونَ أَجْسَادَهُمْ وَلُحُومَهُمْ وَعُقُولَهُمْ بِمَاءٍ آسِنٍ وَطَعَامٍ خَبِيثٍ لا يُسْمِنُهُمْ فِي سَبِيلِ الْهِدَايَةِ وَلا يُغْنِيهِمْ مِنْ جُوعٍ.

التَّرْبِيَةُ لَيْسَتْ بِاسْتِجَابَةِ طَلَبَاتِهِمْ :

أَيُّهَا الآبَاءُ:

إِنَّ تَرْبِيَةَ الأَطْفَالِ لَيْسَتْ بِتَوْفِيرِ مَا يُرِيدُونَ، وَإِنَّ حُبَّ الأَوْلادِ لَيْسَ بِتَرْكِهِمْ يَفْعَلُونَ مَا يَشْتَهُونَ، وَإِنَّ حِمَايَةَ الأَطْفَالِ لَيْسَتْ بِالدِّفَاعِ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَا يَعْمَلُونَ أَوْ يَذَرُونَ.

فَتَرْبِيَةُ الأَوْلادِ هِيَ إِدْخَالُهُمْ فِي مَنْظُومَةِ الْحَقِّ وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، مَهْمَا تَطَلَّبَ ذَلِكَ لَهُمْ مِنْ حِرْمَانٍ، وَمَهْمَا اقْتَضَى الأَمْرُ مِنْ شِدَّةٍ وَحَزْمٍ لإِبْعَادِهِمْ عَنِ الإِثْمِ وَالْعِصْيَانِ. فَهَا هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَبٌ كَكُلِّ الآبَاءِ، لَهُ قَلْبٌ يَخْفِقُ بِمَحَبَّةِ ابْنِهِ كَمَا تَخْفِقُ قُلُوبُنَا،

وَلَهُ عَوَاطِفُ تَهِيجُ بِمَحَبَّةِ ابْنِهِ كَمَا تَهِيجُ عَوَاطِفُنَا، فَيَأْخُذُ مِنْ ابْنِهِ تُفَّاحَةً، وَأَيُّ شَيْءٍ تُسَاوِي التُّفَّاحَةُ فِي سَبِيلِ إِدْخَالِ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ لِقَلْبِ الابْنِ؟! لَكِنَّهَا تُفَّاحَةٌ- صَغُرَتْ أَمْ كَبُرَتْ- مِنْ مَالٍ عَامٍّ مِنْ أَمْوَالِ المُسْلِمِينَ، وَهِيَ لا تَحِلُّ لَهُ وَلا لابْنِهِ، فَهَلْ تَرَكَهُ وَشَأْنَهُ بِهَا؟ هَلْ قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تُنْقِصَ شَيْئًا مِنْ مَالِ المُسْلِمِينَ؟ هَلْ قَالَ مُسْتَصْغِراً شَأْنَهَا: مَا هِيَ إِلا تُفَّاحَةٌ وَلَنْ تَضُرَّ ابْنِي شَيْئًا بَلْ سَتُسْعِدُهُ؟ لا.. بَلْ أَخَذَهَا مِنْهُ لأَنَّهُ حَرِيصٌ عَلَيْهِ وَيُحِبُّهُ، فَهُوَ لا يُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ جَسَدَهُ فَتَكُونَ مُهْلِكَةً لِجَسَدِهِ وَعَقْلِهِ وَكُلِّ جَوَارِحِ جِسْمِهِ.

وعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِفِعْلِهِ هَذَا لَمْ يَقْتَرِفْ بِدْعًا مِنَ الأَفْعَالِ، وَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ مِنَ الرِّجَالِ، بَلْ كَانَ قُدْوَتُهُ وَأُسْوَتُهُ فِي ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ الَّذِي كَانَ لَهُ رَيْحَانَتَانِ مِنْ أَحْفَادِهِ هُمَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ- رضي الله عنهما، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّهُمَا وَدَعَا اللهَ أَنْ يُحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا.

فَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ أَخَذَ الْحُسَيْنُ- وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ- تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، وَالصَّدَقَةُ لا تَحِلُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلا أَنْ قَالَ لَهُ: «**كَخْ كَخْ، ارمِ بها أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»(١)،

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩).

وَأَخَذَهَا مِنْهُ ﷺ.

فَهَذِهِ هِيَ التَّرْبِيَةُ السَّلِيمَةُ، أَمَّا أَنْ نُغَذِّي أَجْسَادَهُمْ بِمَالٍ حَرَامٍ، وَنُعَلِّمُهُمْ وَنُرَبِّيهِمْ مِنْهُ فَمَا هُوَ إِلا هَلاكٌ لَهُمْ، وَيَكُونُ نَوَاةَ غِذَاءٍ لِلنَّارِ؛ لأَنَّ كُلَّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ وَحَرَامٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ.

الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ :

أَيُّهَا الآبَاءُ:

يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ- رحمه الله: (فَمَنْ أَهْمَلَ تَعْلِيمَ وَلَدِهِ مَا يَنْفَعُهُ، وَتَرَكَهُ سُدًى، فَقَدْ أَسَاءَ غَايَةَ الإِسَاءَةِ، وَأَكْثَرُ الأَوْلادِ إِنَّمَا جَاءَ فَسَادُهُمْ مِنْ قِبَلِ الآبَاءِ وَإِهْمَالِهِمْ وَتَرْكِ تَعْلِيمِهِمْ فَرَائِضَ الدِّينِ وَسُنَنَهُ، فَأَضَاعُوهُمْ صِغَاراً فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَنْفَعُوا آبَاءَهُمْ كِبَاراً)[1].

فَأَيُّهَا الآبَاءُ وَالمُرَبُّونَ:

فَكَمَا تَزْرَعُونَ تَحْصُدُونَ، وَكَمَا تَعْمَلُونَ تُجَازُونَ، وَكَمَا تُرَبُّونَ تَجِدُونَ، فَإِنَّ رَبَّيْتُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَجَدْتُمْ كُلَّ الْخَيْرِ، إِنَ نَشَّأْتُمُوهُمْ عَلَى التَّقْوَى وَالْهُدَى وَالْوَرَعِ وَجَدْتُمْ مَا رَبَّيْتُمْ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم (١/ ٢٢٩) مكتبة دار البيان – دمشق الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

الشَّرَابُ آسِنًا، وَالطَّعَامُ فَاسِدًا، وَالْغِذَاءُ حَرَامًا، فَلَنْ تَجْنُوا إِلا عُقُولاً قَدْ خَرِبَتْ، وَأَجْسَادًا مِنَ الْحَرَامِ قَدْ تَرَهَّلَتْ، وَأَعْمَالاً قَدْ أَفْسَدَتْ، وَلَنْ تَحْصُدُوا فِي الدُّنْيَا إِلا عُقُوقًا وَكُفْرَانًا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هَلاكًا وَخُسْرَانًا.

إِنَّ غَرْسَ الْمَفَاهِيمِ الصَّحِيحَةِ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ ضَرُورَةٌ وَاجِبَةٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الأَبُ وَلَيْسَتْ فَضْلاً مِنْكَ!! فَعِزَّةُ النَّفْسِ وَالْوَرَعِ خُلُقٌ لَهُ أَبْعَادٌ كَثِيرَةٌ، فَهُوَ يَحْمِي الطِّفْلَ مِنْ أُمُورٍ لا تُحْمَدُ عُقْبَاهَا فِي صِغَرِهِ وَإِذَا كَبُرَ سَتَقُودُهُ لِلنَّجَاحِ فِي حَيَاتِهِ، وَثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ وَاعْتِمَادِهِ عَلَى رَبِّهِ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ.

فَلا تُدْخِلُوا فِلْسًا مِنْ حَرَامٍ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلا تُطْعِمُوهُمُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ، وَلا تُسْقُوهُمُ الشَّرْبَةَ مِنْ سُحْتٍ، فَعِنْدَهَا سَتَجِدُونَ مَا يَسُرُّ فُؤَادَكُمْ، وَيُثْلِجُ قُلُوبَكُمْ، فَهَا هُوَ إِمَامُ أَهْلِ الْحَدِيثِ الإِمَامُ مُحَمَّدُ ابْنُ إِسماعيلَ الْبُخَارِيّ- رحمه الله تعالى- الَّذِي كَتَبَ الصَّحِيحَ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ، وَعُدَّ أَصَحَّ الْكُتُبِ بَعْدَ كِتَابِ اللهِ- عز وجل، أَتَدْرُونَ مَاذَا يَقُولُ أَبُوهُ إِسْماعِيلُ عِنْدَ مَوْتِهِ: وَاللهِ لا أَعْلَمُ أَنِّي أَدْخَلْتُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِي يَوْمًا دِرْهَمًا مِنْ حَرَامٍ أَوْ دِرْهَمًا مِنْ شُبْهَةٍ. أَتَدْرُونَ مَاذَا جَنَى مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَدْ جَنَى أَيْنَعَ الثِّمَارِ وَقَطَفَ أَزْكَى

وَأَشْهَى اللَّذَائِذِ عِنْدَ الْكِبَارِ أَلا وَهُوَ أَنَّ ابْنَهُ أَصْبَحَ إِمَـامِ الـدُّنْيَا فِي أَحَادِيثَ الـْمُصْطَفَى ﷺ.

فَأَعِدُّوا الْحَلالَ لأَبْنَـائِكُمْ أَيُّهَـا الآبَـاءُ، وَأَبْعِـدُوا الْحَـرَامَ عَـنْ أَفْوَاهِهِمْ، أَبْعِـدُوا السُّـحْتَ عَـنْ أَجْسَـادِهِمْ، قُـوهُمُ النَّـارَ الَّتِـي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةِ.

الدروس المستفادة من الحكاية:

١- غَرْسُ الأَخْلاقِ الْفَاضِلَةِ وَالمَبَادِئِ وَالْقِيَمِ الْعَالِيَةِ فِي الأَبْنَاءِ يَكُونُ مُنْذُ نُعُومَةِ أَجْسَادِهِمْ.

٢- الأَبُ عِنْدَمَا يُبْعِدُ ابْنَهُ وَيَحْرِمُهُ مِنْ لَذَّةٍ حَرَامٍ لا يَعْنِي أَنَّهُ لا يُحِبُّ الْخَيْرَ لابْنِهِ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ تَمَاماً فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يُنْقِذُهُ مِنَ النَّارِ.

٣- التَّرْبِيَةُ تَطْبِيقٌ عَمَلِيٌّ لا تَنْظِيرٌ وَعْظِيٌّ وَلا خِطَابٌ قَوْلِيٌّ.

خاتمة

أيها الآباء، أيها الأبناء:

حياتكم هي حياة الأمـة، وسـعادتكم هـي سـعادة المجتمـع فانظروا إلى آثار من سبقكم، واقتفوا آثارهم في كل خير، وتجنبـوا مـا عـرض لمسـيرة حيـاتهم مـن كـل شر، انظـروا في حكايـات الصالحين وقصص المتقين واجعلوها نبراساً يضـيء لكـم دروب التربيـة السـليمة، والمعاملـة الطيبـة الكريمـة فـيما بـين بعضـكم البعض، ولا تقفوا عند هذا فحسب، بل انظروا أيضاً في آثار مـن وقعـوا في المهـاوي وتـردوا في المهالـك، وخـذوا مـن أخطـائهم الدروس والعبر، لكي لا تقعوا في مثل ما وقعوا فيه من الأخطـاء والحفر.

وها أنا قد قدمت لكم نزراً يسيراً من كلا الفريقين، فـانظروا فيها وتعلموا منها أخذ الدروس، واستنتجوا منها العـبر في تربيـة النفوس، واجعلوها نقطة البداية للاستفادة من كل قصة وحكاية تقرؤونها أو ترونها أو تسمعونها أو تعايشونها.

دامت بيوتكم بيـوت أمـن وأمـان، وواحـة خـير واطمئنـان واسأل الله لي القبول، ولكم إلى الخير والفلاح الوصول، إنه خـير مأمول، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس